# مَتَّعتك نفسي

---

إيمان محمد

# متعتك نفسي

إيمان محمد

رواية

# متعتك نفسى

## ايمان محمد

رقم الايداع : ٢٠٠٥/١٧٠٦٠
الترقيم الدولى 977-407-012-7
الناشر المكتب المصرى للمطبوعات

المكتب المصري للمطبوعات

رئيس مجلس الإدارة

**محمد حامد راضى**

العنوان والتليفون
٥ ش مصطفى طموم
- المنيل- القاهرة
تلفاكس ٣٦٥٥٤٨٧

الهزائم تكتسب شرعيتها عندما تدون في الذاكرَة.. ولأن الطغاة هم أبناء ضعفنا الشرعيون.. أكتب ألمي حيث اخترت غربتي فيك..عندها اهتديت لنسيانك .. أبدا لا شئ غير المصادفة .. وحدها قادتني إلى نهاية ليست سعيدة.. نهاية جعلتني أهتدي إلى هذا البرد..أحب وحدي وأحلم وحدي والأكثر مرارة أن أنسى وحدي.

أختار من وجعي يوما لك وحدك لتعدو على أوراقي كما تشاء.. أرسم ملامحك التي كثيرا ما أوهمتني بالنقاء.. أكتبك اليوم لا لأنني خاسرة ..بل لأنني أفر من أوهامي فيك.. حيث لم يعد لدي ما أمنحه لرهان خاسر...حين تركتك في طريق اللاعودة هناك، فلم تكن أغلى من مدينتي التي يسكنها الغرباء أو أخرج منها على أطراف أصابعي

وأعرف أن الكتابة قصب جنوبي ونواح يرتدي ذاكرتي .. يخترق رأسي مثل رصاصة..لن أضع يدي هذه المرة على فم البوح ولن أنسى...أشيع صمتي لمثواه الأخير وأنا ألملم أوصال حلمي فيك.

اليوم وأنا أفقد شهية التواصل ..أخرج أوراقي ألوثها بذكرياتك التي لم تعد جميلة ..كأنني أمسك الحلم كل الحلم

وأخرجه من باب الخسارات وأغلق الباب دونه.

الكتابة وحدها تخرجني من دائرة وهمي ..التي لا أعرف كيف صرت إليها.. كيف أحاطت بي ؟ .. فالوهم يمتلك سحرا ما يجعلني اتلذذ وأنا أدخل إليه بإرادة عمياء ...وها أنا اليوم أبصر نور الحقيقة. أتلمس طريقي للخروج من هذه البئر أزف نبأ الرجوع إلى الخاتمة..لن أساوم نفسي على التواصل ..أنا فقط أدون عمري للسائلين عن الشمس التي أمسكتها ولم أدر أنها ملاكي الأول..كنت فراشة عبثت بالضوء والغناء عندما كانت مفاتيح القرار بيدك أنت وأنا أقطن في زوايا القبول حين تحجر قلبك و تحجر لساني ، عندها فقط تركت كل مالي وما كان..ليضيف القدر حماقة اخرى لترثيني القصائد بين لقاء لم يكن وفراق ملأني..

أغلق باب غرفتي لأختار وحدتي فيك .أنظر في مرآتي لأرى الأنثى التي أنجبتها رجولتك.أسكب منك كما أحب ..

وحدك تهرول في داخلي ..ووحدي أبعثرك في غرفتي وحدي أعرف أسمك .

وللسائلين فقط ،لا أبرر هزيمتي ،أنا اليوم أعلن انتصاري ، أعلن حريتي للورق وأدون تاريخ خروجي من آخر حرب ، بإرادتي ، نعم آخر حرب ،أبصق في وجهها ..

أتجاسر على ضعفي أخيرا حين أدونك حرفا حرفا، لحظة لحظة وككل النساء تخجلني الهزيمة ، ولكنني آثرت الهزيمة على

نصر دنيء أسجله نيابة عن كل الذين يغطون الشمس بغربال، ونيابة عن كل النساء اللواتي خلقن لذواتهن خيالات ، واستبدلن وأقعا طيبا بأحلام بالية . .وأصبحن في أقاصي العزلة. وأنا بين مصدقة أو مكذبة آجد السنوات وقد فرت من يدي ، لم تستأذني ..كأنني أدرت ظهري فغاب كل شي ؟

وها أنا أدون خيالا اغتصب أجمل سنوات العمر .. مضحك أن يشكله رأسي رجلا لكل التواريخ.يتحجر في جمجمتي ولا ينتزعه الوقت إلاّ برفقة الأنكسار.. أدخلك تحت أغطيتي دافئا" شهيا" ...مشكلتي أنك لا تتوارى خلف الذاكرة .. أفتح نافذتي لأراك وكنت أرى بيتنا أجمل بيت فقط لأنه أمام بيتك، وغرفتي أجمل غرفة لأنها تطل على نوافذ غرفتك.

ومنها كنت أبدأ حلمي معك.كل يوم تجرني نظرة منك إلى حدود الاشتهاء ..كنت رجلا يسكنني دون أن يلمس يدي وبنظرة واحدة تختزل السموات لي لتكون سقفا لغرفتي ، ومن النافذة أتخيل أنك تجيب عن أسئلتي الكثيرة:

كيف حالك اليوم ؟ هل نمت جيدا ؟متى ستعود ؟ هل أعجبك الشاي ؟ أي الأغنيات أعجبتك؟ هل تكره الحرب مثلي ؟

كان صمتك يمرر الإجابات كما أشتهي . أستضيف نظراتك في غرفتي أوزعها على كل أشيائي .. وحين لا أراك الوقت يمر فارغا ولا يدون في خاطري وعندما ترسل إلي قبلة من بعيد كانني أتوج ملكة على نساء الكون ، كنت مرآتي أطالع فيك

ملامحي ولهفتي والانتصارات المرة التي نثرتها على ربيع عمري

كنت لي لهفة لا تنتهي تربط روحي بقضبان النوافذ..علك تمر أمام داري لأراك.

لقاء يتيم واحد كان بيننا، التقينا لتودعني.. أقصد لتسجلني (خرابة وقف) وتركتني لأطول انتظار اخترت أنت الهروب وأخترت أنا الصمت أسجل في هذا اللقاء أول هزائمي ،فما كانت النظرات والحب الذي أتقن الصمت قادرين على الإمساك بك فها أنت تترك الوطن فما قيمة الأشياء الأخرى؟ فما قيمة حب لم ير النور إلا في لحظة الفراق ؟حب لايجيد القفز على أسوار الممنوعات ولم يسجل له ذكريات لديك ؟ في هذا اليوم غفت أصابعي بكفك كأنك تأخذها في رحيلك المجهول ، وتركتني أمام ستائر نوافذك المسدلات ، أخمن عودة لم تركني لصباحات تتقاسمها الحروب ونخر جلدها الحصار وليال تحت أغطية الوحشة، تركت اسمي يكتب على أوراق غيرك وجسدي تتقاسمه صفقات عائلية ورجل أمنحه صحرائي.وأبقيت أنت لي غيابك يرتب عجزي كأنني بلا أحد، تغادرني الفصول خلسة على سرير دائري لايشبه رأسي، يحاول النيل من ذكريات النوافذ ولا ينال غير غبرة الصحراء يؤجل كل يوم طقوس الاحتلال، بينه وبيني حلم يتنفس ، يشغل رأسي.

كيف يبدأني هذا الرجل وأنت كتابتي الأولى والرغبة ليست سوى عصيان في بوابة الفتح. وأنا أدندن بياس كل ليلة ليست لك، السرير مقصلة لا تنال رأسي.حين تكون الرغبة سماء فارغة.ورغبة لايمتلكها القرار.

وها أنا زوجة لرجل لايكثر الكلام ، يحمل إرث عائلته السياسي مشبع بقيم راقية والأهم من ذلك كان يحترم صمتي، لم يقتحم ذكرياتي ولم يقرأ أزمنتي التي دونتها على المطر . ترك لي خيار أن أغيب معك وأمعن بالوهم، لم يشغلني عنك إلا زمن مبتور الأطراف ظل يمطر رصاصا ودما وشواهد غارقات في متاهات الآه الأكثر قسوة والرغيف البارد يركض وكلنا يركض خلفه ، ضاق الوطن بنا..خرجت معه ومازلت أنت بكفي أجمع أصابعي عليك في مفترق الطريق وأنا أدون صحراء أحرفي في أول غياب . وها نحن .كلنا غرباء تكتبنا المنافي .نستبدل غربة بغربة، نقتسم أفاقا بعيدة..لانملك ذكريات بلا حرب نسجل أحداثنا على صفحاتها، وحتى حين ننشغل عنها تكتبنا هي ..الفقراء هم ضحايا الحروب دائما مثلما هم ضحايا المرض والكوارث وحتى ضحايا الفصول القاسية.

لا أقول ذلك لأمرر المشهد والأمكنة والقناعات ربما نكون أنا وزوجي فقط بحث المنفى عنا، لم يفكر بالسفر إلاّ حين أجبر عليه وأنا أتبعه لا لشيء فقط إلا لكون اسمي مسجلا في أوراقه، وهو كان يأمل أن أحتاج مشاعره حين نكون وحيدين هناك.. وليتني فعلت.

أنا أغرسك في نفسي أكثر وأتغرب فيك.. وظل زوجي صامتا يحيط غربتي بالسؤال الذي لايجرؤ عليه..واليوم أصفع بقدر جديد هو أن أكتشفك ..لتكن أكبر هزائمي وأنا أحبك وأكبر انتصاراتي وأنا أقتلك، ألقيك على الأرض لتدوسك الأقدام ، وأبصق عليك.

في آواخر حزيران يبدأ الدفء يتقدم نحو ميونخ، يكاد لايعنيني ما حولي.وأسرع لأدس نفسي بين الآخرين كمن يسرع بإخفاء منديله القذر في جيبه كي لا يراه أحد . كارهة كل المدن بعد أن سقطت بغداد وسقطت معها أشياء أخرى ..هكذا تصبح الحياة ليست سوى هزيمة مروعة ونبوءة موت تسابقني . خرجت من المنزل لأمرين أن أشتري بعض ما يلزمني، والآخر أن أذهب إلى عيادة الطبيب ليكتب لي دواء لمرض الضغط الذي لازمني منذ اليوم الأول للحرب الأخيرة والتي لا أدري إن كانت هي فعلا الحرب الأخيرة، ولكي اختصر المسافة لوجهتي لابد لي أن أخترق محطة القطارات التي كانت تتوسط المدينة، أستوقفني معرض للصور أقيم هناك، توقفت حين شعرت بأن هذه الصور تعنيني، تدونني حرفا حرفا أو حربا حربا.كانت توثق تفاصيل أوجاعي..كل صورة أسير معها عكس عقارب الساعة كلها تعيد تفاصيل الحرب المرة على وطني الذي ابتلاه الله بالنفط وبقطاع الطرق والخونة . أرى الشوارع تكتبها الصور وهي مدججة بالموت، لا أدري كيف شعرت كأنهم في هذا المكان وكأنهم أتوا بجثمان بغداد ليدفن في ميونخ، تذكرت جثمان أخي الذي مات في

الحرب الأولى، في كل حرب يكون الفقراء هم الوقود ويغيب عن المشهد صناع الكوارث وتجار الحروب. بكيت أمطرت المكان بجحيم من الدموع، وحين وقفت أمام صورة الأسيرالعراقي للمصور الفرنسي جان مارك ذلك الأسير الذي غطوا رأسه بكيس أسود جالسا على الأرض موثوق اليدين وأجلسوا طفلة بجواره إمعانا في الإذلال .. ليبدا طفولته منكسرا، يتعلم الكراهية، تابعت حمل عذاباتي وأنا أنتقل من صورة الى أخرى، تلك الحرية التي لا تعني أحدا سوى اللصوص، وكل من حولي يمتعض من مشاهد الموت المروع في المكان أسرع رجل مر بجواري بوضع يده علي عيني طفلة الذي كان يسيرمعه كي لا يرى مشاهد الموت والإذلال، كل من حولي يدين هذه الحرب . في الشارع صار رأسي ألبوم صور يتصفحني بينما بقيت ميونخ تقلب أمزجة المناخ ، تغيب في تفاصيل الألم وتمطر بصمت ، علها تنسى جان دارك.

دخلت العيادة التي احتشدت عن آخرها بالعراقيين الذين يجمعهم سبب واحد ليكونوا جميعا هنا وهو للحصول على اجازة مرضية من العمل. لم أمقت أبناء جلدتي مثلما مقتهم في هذا المكان .تحولوا إلى ديكة يتخبط المكان بحوارات غبية يكاد يأكل أحدهم الآخر بين رافض للاحتلال وبين من يجده طوق نجاة..يتصاعد الغباء في المكان .. رأيت العراق تمزقه الضلالة وعندما يكررون كلمة الحرية، يستحضر رأسي صورة الأسير وطفلة وأشعر بالغثيان

فلم أعد أرى أحدا، ولكنني كنت أشعر بأن الهواء الفاسد يملأ

رتني ..وقبل أن تهطل دموعي آثرت أن أترك المكان وأنتظر دوري في الممر الخارجي، فما زال أمامي الكثير من الوقت ليأتي دوري في المعاينة. وأنا أخرج شعرت بأن أحداً ما تبعني نظرت إلى الخلف ابتسمت لي عبرنظرة يملأها الحزن وقسمات وجهها التي أشعرتني وكأنني أنظر في المرآة تصطحب طفلتها كأنها أرادت أن تقول إنها مثلي لا تحتمل مكانا يلوثه الغباء وحين ابتسمت لها أشعرتها بأنني افتح المكان لتسأل ما تريد"

- أنت من بغداد أليس كذالك ؟

- نعم

ودون أن أسالها قالت

- وأنا أيضا

صمت قصير وأنا أنتظر سؤالها الآخر:

- متزوجة؟

أجبتها دون تردد

- لا أدري... وقبل أن تبدي دهشتها قلت

- نعم متزوجة

كانت الطفلة تحمل ما لكلتينا من قسمات حزن عميق

استدركت أنا المكان بمجاملة لا بد منها في موقف كهذا

- ابنتك ما شاء الله جميلة جدا

أجابت بعد أن أخرجت حسرة أوجعتني

- الجمال ليس هو.. المهم أن تكون محظوظة

لقد شعرت بمرارة العبارة واكتشفت أنني لا أملك ما أقوله لها لقد كنت دائما مشغولة بعزلتي لم أتمرن على مجاملة أحد ولم أعتد العبارات التي تقرب الآخرين مني، ولكن في هذه المرة كان أمرا خفيا مشتركا بيننا إلاّ أن هذا اللقاء يوجز وجهة نظر تشكلت سريعا وهذه هى المرة الأولى منذ سنين التى أجد امرأة تستوقفني ملامحها حتي كأن الآخرين لايملكون قسمات، ولا يشكل أحدهم حضورا لدي إلا هذه المرأة التي اختار القدر أن نلتقي في زمن ظننت أن لا أحد فيه من أزمنتي الخاوية الباردة، امرأة أنتسب لحزنها دون قرار يسبقني حيث تشاكسني حيرتها.

لحظات قليلة لخاطري يشكلها كما يريد في صمت يختارنا لنتكلم معا في ذات اللحظة سؤال واحد .. توقفنا معا

ابتسمت لها وأنا أقدمها على نفسي

- قولي أنت

- الحقيقة أردت أن أسالك أين تسكنين؟ وأكملت قبل أن أجيبها بسؤال

وأنت ماذا كان سؤالك؟

ابتسمت لها بحب . أنا ايضا أردت أن أسالك نفس السؤال

آجابت

أنا أسكن في Neuberlchsntrum

. يال المصادفة أنا أسكن قربك في kurt eisner str

كانت رقيقة تلك الكلمات جعلتني أتعافى من حواجر الوحدة كنت ألملم أسئلتها الناعمة وهي تبعثرها عمدا مثل أزهار النرجس.تمرر كلماتها عبر منافذ النقاء جعلتني أنتمي إلى لصوتها بدهشة.

المرة الأولى التي أستبدل ضجري بشئ ما، ربما يشبه الفرح الذي لم أعتد عليه، ولم أتعود التعامل بمفردات تجامل الآخرين ولكنني اجتهدت لحظتها في أختيار أجمل ما حملت ذاكرتي من الكلمات ، حقا تمنيت أن أقولها مرة واحدة بلا توقف كانت هي تتكلم وهي تتفحص اندهاشي.

في لحظة صمت قصيرة غادر خاطري المكان ذهبت بعيدا ..تذكرت أهلي و تذكرت حماقة أن استبدلهم بالمنفى .

تلمست وحشة ما وأنا أستنشق غربتي أو أستنشق موتا، انتشرت بالفراغ..أصبحت بعيدة جدا ولا أدري لماذا كلما استحضرت وجه أمي أشعر بكل هذا المرار، أتحسس بأصابعي قروح الغربة على جسدي وأتحول إلى نحيب صامت..لماذا آتذكر بها من أحب ؟ من آين أتت لتمسك لي عمرا يختار الحنين .

أغرب ما في زمن التذكر هذا أن تطل لحظات الوداع الأخيرة بوجه أمي ، كان عمري يتوقف عندها، ربما أتعمد ذلك كي أجلد نفسي ببكائها الذي أستحضره عمدا .

تنشغل هي بتفاصيل أخرى لا أتذكرها وأنا أحاول أن أعيد ذهني الى المكان..أجاهد في ذلك أسمع صوتها وأشعر بالدفء . ملأني الإرتباك كأنني بين حاضر طيب وماض أليم نتقاسم اللحظات، تقفز هواجسي بين أن أتداخل في حوارها وبين أن أقدمها لماض ليس لي سواه..وبين هذا وذاك سمعتها تردد اسمي

- إلهام؟... إلهام

نظرت لها مندهشة سألتها

- كيف عرفت اسمي ؟

أجابت بذهول وتعجب

- أنت لم تكوني هنا

إنهم ينادون عليك من من الداخل يبدو أن دورك في المعاينة الآن.

- حقا؟

وأنا على عجل طلبت إليها أن تنتظرني فلن أتأخر فور أن يكتب لي الطبيب الدواء فأجابت دون تردد:

Ok-

بعد بعض دقائق خرجت إليها ثانية وأنا أدس الورقة التي كتب الطبيب عليها الدواء في حقيبتي وأوجه إليها السؤال الذي كان من المفترض أن يكون هو الأول :

ـ ما اسمك؟

ـ نجاة وأكملت

أريد أن أقول لك شيئا ما، ولكنني لا أعرف بالتحديد ما هو

بادلتها نظرة محبة وكأنني أكمل عنها

ـ وأنا أيضا أريد أن أقول لك شيئا ما

قاطعتني وكأنها تجيب عن كلتينا

ـ أشعر بأنني أعرفك .. أو رأيتك في يوم ما!

كانت تقول الأشياء أفضل مني تسبقني لنفسي وتدخل في أماكن لم يطأها أحد قبلها.

ودعتها بعد أن تبادلنا أرقام الهواتف واتفقنا أن نلتقي ثانية، وتركت قبلتي على وجه طفلتها التي كانت ملاكا هادئا لا تشبه سواها

وزعت انتباهها مناصفة بيني وبين طفلتها وهي تقول لها أن تسلم علي

ـ قولي لخالتك باباي

ـ باي.

في بيتي الصغير الذي هو عبارة عن غرفة واحدة ..تبعثرت كتبي على الأرض وعلى كل شئ ..حتى لم تترك مكانا ليجلس عليه أحد، في هذه اللحظة بدأ معي انتباهي الأول حيث بدأت ألملم الأوراق والكتب وأرتب ما تبعثرمنها على الأرض وعلى الأريكة التي تكسدت عليها هي الأخرى الكتب، بدأت أزيحها كي أخلي مكانا لنجاة حين تزورني .كنت أفعل ذلك وكأنها ستدخل علي الآن .لم أسأل نفسي لماذا أفعل هذا بارتباك.هل لأنني أبحث عن أحد أي أحد كي يشاركني الفراغ، ولو كان هذا صحيحا لماذا تكون هذه المرأة بالذات؟.. أنشغل بها دون أن أشعر، ربما تشكل لي انتماء ما، أقنعت دواخلي بألاّ أفكر في البحث عن الأسباب . ولكن سؤالا واحدا يلاحقني وأنا أتجه الى النافذة سؤال يزيح الستارة معي ترى لماذا هذه المرأة بالذات التي يختارها القدر لتدخل عزلة حرصت عمرا على ألا تخرج مني ولا أخرج منها.

عادت ملامحها تدخل رأسي بسخاء. أنظر الى الساعة ..أخمن كم ستحتاج من الوقت للوصول مع طفلتها إلى البيت ..أضع يدي على الهاتف ..ولكنني تذكرت حين كانت تتحدث إلى طفلتها قالت إنها ستذهب إلى السوق كي تشتري لها شيئا ما ..رفعت يدي عن

الهاتف . وفكرت أن أنتظر ساعة أخرى فهذا وقت كاف لتعود

انقضت الساعة أكملت خلالها ترتيب غرفتي وانتابني إحساس طيب لذلك..

رن الهاتف في بيتها .

- آلو من معي ؟

- إلهام

- أه أهلا متوقعة أنك أنت

كنت أريد أن أقول لها اشتقت لأهلي بدلا من أقول: اشتقت إليك آو آشتقت لأشياء غادرتني.. حتى حماقاتي. سألتها بلهفة

- ستأتون غدا ؟

أجابت دون تردد

- ليس عندي ما أفعله غدا وأعتقد أنه مناسب لي جدا أن أراك ..أنا أيضا أريد أن أتحدث اليك .

كأنها قالت إنها مثلي لم تقل شيئا بعد..تريد أن تكمل شيئا ما.. عمرا ما.. طريقا ما.

ولم يكن في كلماتها ما يؤسس في داخلي شكل مجاملة ..هي فقط دهشة ما تبحث كل منا عن أسبابها في الأخرى.

وها هي في بيتي وهذه هى المرة الثانية التي آفرح بها ..لم يكن

فرحا عابرا كان فرحا يقفز فوق ثلاثة حروب و مليون انتظار.

ولا ندري لماذا يلازمنا الخوف حين نفرح وها هي كسرت ظهر عزلتي، فأنا لم أعتد إلا على الإحباط يمد يد العون لي في مساءات بافاريا الباردة ، الصباح اليوم أجمل والمكان أجمل.

حين قبلتها كأنني أقبل وجه أمي أو أقبل وجوه إخوتي جميعا. وحين قبلت طفلتها كأنني أقبل وجوه ١٤٦١٩٠٠ طفل قتلهم الحصار.

كأنني أقبل وجه صديقتي التي ماتت في ملجأ العامرية.

وهكذا يستحضر الفرح آلامي مرة واحدة ولكنني أحاول جاهدة أن أفلت من بين أصابع الذكريات المرة... أبتسم .. أتحول إلى طفلتها وأنا أخرج ما اشتريته من لعب لبراء ، هذا هو اسم هذه الملاك وأفرح معها كأنني أمارس لعبة الفرح الأولى ،تلك التي لم تسنح لي طفولتي بالمرور بها ..حيث لم تهدني أمي لعبة ما أو شيئا يؤرخ طفولتي ..نعم اختلاف كبير بين طفولتي وطفولتها، وأيضا اعتبارات الأمومة في أمور مثل هذه تختلف هي أيضا بين أم لاتملك مالا لتشتري فرحا ما وبين أم أخرى تملك مالا ولكنها تنجب أطفالا كبارا. لايسمح لهم باللعب أبدا.

جلست أنا ونجاة متجاورتين وجلست براء على الأرض افترشت ألعابها وطفولتها منشغلة بحوارات تنسجها طفولة بريئة.

توقعت أنا أن تبدأ نجاة الكلام ففى اللحظة الأولى شعرت بأنها

تريد أن تقول شيئا مؤجلا من الأمس أو تستأنف سؤالا ظل معلقا أو بدايات أحاديث لم يمتلكها الوقت الضيق في عيادة الطبيب. كانت بين لحظة وأخرى تتوقف عن الكلام لتخرج حسرة سألتني إن كانت تستطيع التدخين أجبتها:

- أكيد... ولكن أفتح النافذة قليلا حتى لا نؤذي براء

وأنا أعود إلى مكاني .. سألتها

- هل زوجك عراقي؟

- نعم

- معك الآن

- كنا معا قبل أن تبدأ الحرب ..في بداية هذا العام، اختلط صوتها بحشرجة ألم تحدثت بمرارة.. غطت عينيها بأصابع يدها اليسرى بينما بدت أصابعها اليمنى تتراخى حتى تكاد السيجارة أن تسقط منها وأكملت

- أتمنى لو يموت

تعمدت أن تقول ذلك بصوت خافت كي لا تسمع ابنتها، وحين رفعت رأسها وأنزلت أصابعها إلى فمها رأيت بكاء ونحيبا لا يبرره إلا ثلاثة أشياء هي الحرب والموت والخيانة. تنهمر دموعها بغزارة مع وابل من الشتائم

- كلب ..حطم حياتي ..نذل.

وضعت يدي على كتفها وأنا أحاول التخفيف من عذابات ليست غريبة عني ربما تأتيني لأسباب أخرى قالتها هي بصوت وبكاء، أما أنا فأعيشها وحيدة كما بدأتني أول مرة تمنيت لو أخرجها مثلها تماما. هكذا تماما أمطرها وينتهي الأمر ربما سأكون أفضل بكثير.

وجدتها تشبهني وهي تبكي، لم يدهشني ما آل اليه الموقف..استحضرت ذاكرتي آخر مرة بكيت فيها و لم تكن بعيدة فلم يمر سوى يوم واحد على آخر بكاء، كان ذلك وحدي أمام تلك الصورة وها هي الآن تبكي معي، نسقي اللحظات.

مازلت أحاول أن آخفف عني وعنها و نمارس خدعة أن نستبدل حلما بحلم آخر..ولكن حين يضيع وطن هل نجد بديلا يبكي من أجلنا.

هو وحده يبحث عنا يشير إلينا بالرجوع ، نحن أبناؤه الضالون في متاهات المنافي الباردة.

ترى ماذا فعل لها هذا الرجل لتمطر بيتي بكاءً مرا وشتائم؟ أين تحتمي من الحزن حين ينهمر هكذا؟ أي مظلة أي سقف يقينا نحن الثلاثة حين يهجم علينا؟ وابل من الخسارات والحرمان والضياع يملأ الغرفة، نتنفس أوجاعنا، نصمت معا لتمر حكايتها.

إنه رجل سئ في زمن سئ ..تتابع

- قبل خمس سنوات ملأنا الحصار جوعا وقهرا وموتا ننشغل بالقدور الجائعة ..الجوع يكبر والرغيف يصغر .. الأمنيات تتوارى خلف جدار العوز والحاجة فبعد وفاة والدي لم يبق لي سوى والدتي وأخت واحدة متزوجة وهي نادرا ماتزورنا. لها نفس معاناتنا ولي أخوان، أحدهما مازال يدرس في الجامعة والآخر متزوج وله أربعة أطفال نقتسم معا البؤس، حاولت أن أغير من واقعنا المتهرىء..خرجت من بغداد وأنا أنظر إليها (صمت وكأنها تتفحص دواخلها ثم تابعت).. حتى هذه الساعة ما زال رأسي إلى الخلف أنظر إليها ...قاطعتها.

- بغداد؟

- أمي

قلت

- لافرق

أكملت هي

جاءت جارتنا تطلبني للزواج من ابن أخيها المقيم في كندا فكانت فرصة لا تتوافر وقد لا تتكرر .. ترددت والدتي في القبول إلا أنني أقنعتها أخيرا وأنا لم أر حتى صورة لهذا الرجل لم أتردد فتزوجته بوكالة أرسلها إلى ابن عمته وبعد أن أتممت كل شيء رأيت صورة من أصبح زوجي على الأوراق الرسمية كانت صورة قديمة بالأسود والأبيض كان شيئا ما يتوسط صورة سبعينية

لشاب خنفس كما كانوا في ذلك الوقت يسمونه بشعر كثيف وزلفين عريضين يتمددان على خديه ..راهنت نفسي أنه آخذ هذه الصورة قبل أن أولد أنا.

وأنا في الحافلة وعلى طول الطريق من بغداد إلى عمان ..لم تغادر رأسي تلك الصورة انتابني شعور ما يشبه الندم وأنا أغادر آخر محطة في طريق المركز الحدودي ... المكان ممتلئ عن أخره بالسيارات والحافلات والشاحنات والبشر، الكل يفر من العراق ..كل واحد يتأبط حلما، وهو يربط حواسه أمام شبابيك كتب عليها عبارات تمجد القائد الأوحد الكل ينتظر دوره فى الاستجواب وبالتأكد من الأوراق بكل الوسائل، وبكثير من الحزم والشدة حتى يشعر المرء فور الانتهاء من هذه الإجراءات وهذه الأستجوابات الميتة كأنه أمسك الحياة ثانية ..حينها تركت التفكير بالصورة وانشغلت تماما كالآخرين بأمر الخلاص وكيف ننتهي من عذاب الوقوف الطويل للحصول على تأشيرة الخروج من الجحيم .. لا أدري كيف ضاق بي الوطن لا أدري كيف تحول إلى جحيم نفر جمعا منه؟ بعد أن استلمت أوراقي أدخلوني في غرفة صغيرة فيها امرأة بملامح بشعة مازالت عالقة في ذاكرتي كانت تبحث في حقائبي عما تستطيع أن تأخذه مني مقابل ألا تفتشنى .. لم أنتبه لعرضها ففتشتني بطريقة أشعرتني بالغثيان .. بائسة تلك المرأة وبائسة تلك اللحظات

تقاطع براء والدتها

Ich m?chte saft mami

نهضت أنا سريعا وأحضرت العصير وقطعة الشيكولاتة لبراء أخذته مني بفرح طفولي وهي تقول

.Tanke

وأنا أقبلها..بحرارة

.Bitte

كانت نجاة تنتظر انتباهي لها وها أنا أفعل وهي تكمل ما كانت تقول:

- وصلت عمان وسكنت مع عائلة عراقية ..رجل كبير وزوجته وبنتاه قد وصلوا عمان قبلي بثلاثة أشهر وينتظرون الفرصة للذهاب إلى استراليا أما ابن عمة زوجي الذي أتى بي إلى عمان فلم يمكث طويلا وعاد إلى بغداد فليس أمامي إلا انتظار الرجل الذي يفترض أنه زوجي حيث سيأتي من كندا في موعد لم يحدد بالضبط وما كان أمامي غير ذلك

وبعد أسبوع واحد وأنا أخرج من الشقة لأتصل بأهلي التقيت برجل يبدو في الخمسينيات من العمرعلى سلم البناية استوقفني بسؤال :

- عفوا يا ابنتي هل عائلة السيد أبوخلدون تسكن هنا ؟ أجبته

- نعم عمو إنها هنا بالطابق الثاني ..

تابع صعود السلم وهو يشكرني وأنا تابعت مشواري ..

وحين عودتي بعد أقل من ساعة كان الرجل ينتظرني .. صعقت .. أحقا يكون هذا هو من كنت أنتظر ..رجل في عمر أبي رحمه الله قلت له عمي وقال لي ابنتي.

كلانا شعر بالإحراج من موقف كهذا ولم نستطع أن نبرر سقوطنا في أمر محرج ، إلا أنني قرأت في ملامح هذا الرجل اعتذارا وهو يدفع بالأحاديث التي تدور بيننا إلى مساحة نبتعد فيها عن حرج كهذا. أقام معنا أسبوعا كاملا كان ينام مع الحاج أبوخلدون في غرفة واحدة وأنا أنام مع أم خلدون وبنتيها اللتين كانتا في عمري تقريبا .

أما أبوخلدون فقد جاهد ليجمع رأسين بالحلال ولكن الأمر قد حسم منذ اللحظة الأولى على السلم .. الحقيقة كان إنسانا جدا وهو يحول الموضوع برمته إلى مزحة وينهي بمودة كل شيء لا أدري لماذا شعرت بالأرتياح حينها كأنني أتحرر.

كان يفترض بي أن أعود إلى بغداد .. ولكن آثرت البقاء للبحث عن فرصة السفر التي كان ملايين العراقيين يجاهدون للوصول إليها، إضافة إلى أن الرجل ترك لي الهدايا التي أتى بها ظنا منه أنه يجهز زوجة تناسبة وكذلك رفض الحديث عن المبلغ الذي أرسله لي قبل وصوله.

ظرف طيب لم يتوافر لغيري، فأكثر العراقيين يعملون ليوفروا مبلغ السفر الذي يجعلهم بين بائع للسجائر أو صانع في مطعم أو يفترش شوارع عمان بالملابس القديمة وإذا كان أحدهم محظوظا

سيحصل على فرصة عمل في مصنع ما، فأصبح خيارعودتي إلى بغداد متعلق بسفر عائلة أبوخلدون ففي هذه الحالة فقط سأكون مضطرة للعودة إلى بغداد ولسوء حظي هذا ما عرفته لاحقا ها قد جاءتني الفرصة والحقيقة لم تكن سوى هلاكي الأول الذي تتكر بملابس أحلامي لم أعرف إلا لاحقا أنها فرصة العذاب ليقيم في أنسجة عمري وها أنا التقي بربان عمري (المهرب ) هذا أول اسم عرفته به.

كان أول أسئلتي لماذا نهرب ؟ ونتكور مع أحلامنا ليدحرجنا هذا الرجل إلى أسفل الهلاك وهويحولنا إلى بضاعة ممنوعة؟ وها أنا أصل إلى المساومة فالمبلغ الذي معي ليس كافيا إلا أن الأمر حسم وهو يتفحصني، فقال لي

- لن نختلف.. ستسددين باقي المبلغ لا حقا.

لكنه لم يذكر أين أو كيف أو متى.. تركني للأسئلة حتى جاء موعد السفر بعد أقل من أسبوع فكانت رومانيا أول محطة أوربية تطأها قدمي، وعلى أطراف أيلول كان الجو باردا هناك شممت رائحة الغربة ونحن نغادر المطار وما زال يتكلم كثيرا وأنا أباغت في صمتي أمكنة بعيدة هو يتحرك في كل الاتجاهات المحسوبة لمن يمتهن تجارة الرقيق أما أنا فأتحرك مغيبة في مساحة مجهولة من الأسئلة يندس هو بين الآخرين وأندس أنا بين متاهات حلمي لنصل إلى منزل العائلة العراقية التي أسكنتني عندها والتي تتكون من رجل وزوجته وكان بيتهم عبارة عن غرفة نوم وصالة جلوس صغيرة وإذا أراد أحدهم قضاء

حاجته ليلا لابد أن يمر بجانبي لذا أنشغلت طوال الليالي الأولى وأنا أمرن نفسي كيف أكون نصف نائمة وأيضا بكامل ملابسي يكورني الحياء شهرا كاملا على الأريكة التي تأخذ جانبا من جوانب الغرفة وحين أدخل للحمام أخرس صوت الماء كي لا يفسره الرجل كما تحب غريزته، وأربط حواسي مع كل رنة هاتف أو طرقة باب تحررني أو تأخذني إلى مكان آخر .. تفك وثاقي، حرية ما تتذكرني . كل يوم يمر أشعر وكأن سقف البيت يقترب مني وكأن الأبواب هي الأخرى بدأت تتناسل، ضاق بي المكان ...الأيام تمر ثقيلة بدأت أشعر كأن الهواء ينفذ إلا أنه قبل الموت بلحظة يطرق الباب وإذا بي أتهيأ لبداية المشوار الذي لوخيرت اليوم لن أكرره أبدا، بل لتمنيت أن أعود الى أي جحيم إلا هذا المشوار الذي أفقدني ادميتي، إنه بداية النهاية أو أول الموت، لم يتبق معي سوي ثمانين دولارا فقط وها هي المرأة تتحدث إلي بوجوب دفع مئتي دولار ثمن الإقامة عندهم ، ولكنني ظننت أن المهرب الذي أخذ كل ما أملك سيتكفل بكل الأمور.. المهم صرت في حرج كبير وما كان أمامي سوى الدفع فأبقيت معي عشرين دولارا وأعطيتهم الباقي وقبل أن أخرج قمت بخياطة جيبي على ما تبقى..غريب جدا أن يصبح الجيب وطنا وكرامة تساوي ٢٠ دولارا و في كل لحظة كنت أتأكد أنها مازالت معي فأمسك جيبي بقوه.وها أنا مرة أخرى أسير خلفه.وفي الطريق توقفنا لنبتاع بعض ما قد نحتاج إليه فاستبدلت بنصف ما عندي خمس علب من الجبن وبعض الخبز وثلاث علب من البسكويت الجاف..كان ينظر إلي بدهشة وأنا أحاول فتح جيبي الذي قمت بخياطتة على

ما أملك ..وزادت دهشته حين لم ير معي غير العشرين دولارا ..

وهنا عادت تبكي ثانية .. كأنها تستعيد لحظة ندم موجعه...وأكملت.

شعرت بضيق وندم لأنه أكتشف أنني لاأملك غير هذا المبلغ وكأنني أضيفت لي نقطة ضعف أخرى .. سجلها هو لاحقا في حساباته الدنيئة.

قاطعتها بسؤال فور سماعي عبارتها الأخيرة.

- هل بقيت وحدك معه؟

أجابتني

- لا طبعا. لقد أنضمت إلينا مجموعة أخرى حتى أصبحنا عند جنوب رومانيا ما يقارب العشرين شخصا كرديا عربيا تركمانيا مسيحيا مسلما .. من كل طوائف وأشكال العراق ومعنا أيضا فتاتان إيرانيتان وشاب سوري .وطفلان مع والديهما وشابة تزوجت حديثا وهي تذهب لزوجها .الكل يخرج من ذاته والكل لايدري ماذا هناك ولكنهم ينشغلون بالجانب المجهول من دواخلهم وخلف المجهول نسير ليلا ..نستنجد بالظلام لنهرب أحلامنا وبعد أن أنفض نهار بارد، حشرنا في سيارة جميعنا كأننا كتلة لحم واحدة في وقتها كان ذهني مشغولا بالمجهول ؛ أي كان المهم أن نصل .

الظلام دامس في هذه السيارة المغلقة تماما، المرأة بجواري تطمئن ولديها بأن الأمر سينتهي قريبا .. وفعلا نفضنا ثيابنا من ظلمة السيارة لتعترينا ظلمة حقيقية نتدرب بها على الاستعانة بحواسنا الأخرى.

لم يكن في زوادتي إلا أشياء بسيطة ودعاء السفر وكتاب واحد هو مفاتيح الجنان لم أمزقه حين طلب إلينا أن نتخلص من كل الأوراق التي تشكل انتماءنا من رسائل أو جواز سفر وغير ذلك ..وما زلنا نسير على أرض محروثة وكان السير أمرا شاقا لنصل إلى منحدر بسيط ملاحق للشارع العام وهنا توقفت بجوارنا عربة زراعية (تركتر) وقد صفونا فيها كأطراف أشجار يابسة وغطونا بالقش ولا أدري من صف بجواري .. تمنيت أن تكون أمرأة .

الخوف شل أوصالي والقش على وجهي ..ومايزال الوقت ليلا أوصلونا إلى مكان خال إلا من عويل الرياح..وكنت بين الآخرين لا أملك القرار.. الكل يبحث عن النهاية أي نهاية لهذا البرد والخوف وفي ذلك اليوم مارس الشتاء طقوسا قاسية من برد ومطر ..و حيدر كان بجانبي اقترب مني همس في أذني بشيء ما لم أستطع تميز دناءته أحسست أنه يمهد ليستلم ما تبقى له عندي أحسست أن وقت السداد قد أزف.

بعد أربع ساعات من المسير..في أمكنة موحلة تورمت أوصالي و كدت أسقط على الأرض وحين مد يده لينتشلني كأنه كان ينتظر

ذلك ، و أحسست بأنه يريد أمرا ما لم يعد ممكنا في هذه الظلمة أن أتفحص أسئلتي كرهت هذا البرد وهذا الموت الذي يلازمني كانت إرادة الجميع مغيبة لا ندري ماذا يعد المجهول لنا.

تذكرت أغنية وديع الصافي ..ضحكت في سري عن ليل يعاتب، فمعي ليل لصوص يصفعني في وجهي بردا وندما ..أسير مع الآخرين على أرض غير معبده تجعل السير عسيرا.. أدمت قدمي ..أقاطعها بسؤال

- ماذا عن الطفلين اللذين كانا معكم ؟

أكملت كأنها لم تسمع سؤالي

كنت أبكي نيابة عن الجميع .. الأم تحمل طفلا والأب يحمل الآخر ..مشهد هون علي آلامي كنت أبكي لهم ولي .

أما هو فكان يقترب مني أحيانا يتظاهر وكأنه لايتعمد، تلامس يده مؤخرتي يقترب مني هامسا (أعتذر لم أقصد) ولكأنه في كل مرة يذكرني بأن له دينا عندي وقد حان وقت السداد.

ليلا أتلمس أرضا أخرى .. قدماي تكتشفان المكان قبلي..أتحسس الخطوة على شارع معبد .وأربع سيارات حديثة أنوار السيارت أضاءت الطريق توزعنا عليها كنت بجانب الفتاتين الإيرانيتين ومعنا عائلة أبو محمد في سيارة واحدة توزع الآخرون في السيارات الأخرى ..لنصل أخيرا الى بيت صغير على حدود هنكاريا..ومازال هناك انتظار أخر يلف أسئلة لا نملك نحن لها إجابات فقط هو كان يتسيد على الجميع .

اقترب مني وهو يعتذر عن حماقاته طوال الطريق كانت له عينان تخترقان جلدي ..لا أدري لماذا لم أجب عن تساؤلاته التي كان يهمس بها همسا أو لماذا لم أصفعه مثلا؟

قاطعتها وكأنني أكمل عنها

- ربما لأنه متسيد

تكمل هي

- أو ربما ضعف يرتديني

المهم تكشفت كل هذه الأمور لا حقا ..

بلهفة أتابع معها

- مفاجأة ما أليس كذلك؟؟

- لا ولكن طال المشوار وأتقنت تمرين النظر إليه ..لا فقط ريبة منه بل لأنه يقود قطيع الحالمين مثلي ، يمتلك أدوات السطوة، من يمتلك مفاتيح الأحلام يمتلك إرادة الآخرين.

كان البيت شبه معزول وهو عبارة عن غرفة واحدة أقمنا ستارة في وسطها يسكن الرجال في جهة وأنا وعائلة أبو محمد والفتاتان الإيرانيتان ومعنا أيضا تلك الفتاة العراقية التي كانت أيضا قد تزوجت بالوكالة من شاب عراقي يقيم في ألمانيا منذ سنوات وها هو الآخر معنا حيث التقى بها في بوخارست ..لم يكن يروق لهذا الشاب النوم مع الشباب الآخرين .. كان يريد أن

يمارس حقه الشرعي مع زوجته، وكان علينا قسرا أن نتجاهل الأمر، لقد كانا يتخذان السرير الأعلى وأنا والفتاتان ننام في السرير الأسفل بينما افترشت أم محمد وزوجها وأبناؤها أرض الغرفة و ينام الآخرون في الجهة الأخرى من الستارة وحين أريد أن أقضي حاجتي كان لابد أن أجتاز هذا الحشد من الأجساد والعفن وأشياء لم تألفها عيني أو أضطر لحبس حاجتي و أبلع عذابي حتى الصباح .

صمت قصير ثم تكمل

حلمت مرة أنني عارية تدخل وتخرج الديدان من جسدي .. أخافني ذلك الحلم وزاد مع الخوف حذري وخاصة حين ألتحف الظلام مع الغرباء..ملأتني الكآبة وأنا أدمن الاستماع لمفردات لم تألفها أذني وأيضا لمستويات دنيئة من الحوارات ..لم يكونوا سيئين ولكن الظروف ربما هي التي تنجب هذا العفن، بينهم كان رجلان اقتربا من خمسينيات العمر حشرت في أصواتهم قسوة الحروب .. تستوطنهم مفردات كأنهم لم يعرفوا سواها مواضع ؛ ثكنه، نموذج الإجازات أو الساتر لم يكونا يستبدلانها إلا نادرا. أحدهم قال مرة إنه حين يذهب للجنوب كي يحارب هناك وطوال الطريق يرى العراق شاسعا وأنه يدافع عن وطن لا يملك فيه شبرا يسكن فيه هو وأطفاله ..أما الرجل الآخر فتكلم وكأنه يكمل (ربما كنا لاندافع عن وطن، كل واحد منا كان يدافع عن نفسه فأمامك من يظن أنك عدو إما أن يقتلك أو أن تقتله فتنجو أو تهرب من كل هذا فتقطع أذنك ) .

آحدهم كان يبصق كثيرا .أما الآخر فيتحدى أن لا أحد مثله فهو يستطيع أن يشرب عشر قناني من البيرة مرة واحدة ولا يسكر، وبينهم شاب كان يمتهن النكات والسخرية والضحك دائما إلا أنه حين تذكر أخاه الذي آعدم بلا سبب لم يتوقف عن البكاء حتى الفجر ...والآخر مازال يبصق .. إنه زمن لا يستحق آكثر من ذلك.

هكذا يمر الليل لزجا ..

في النهار تكون الأمور آفضل حيث أغلبهم كان يخرج إلى السنتر أبقى غاليا أنا وعائلة أبو محمد والفتاتان إلا أنها مرة واحدة ذهبت بها إلى السوق لأشتري ما آحتاجه بمابقي عندي ولأنني لا أعرف المكان خرج هو برفقتي حاول استدراجي لحديث يعنيه .. إلا أنني آمسكت عليه ذلك .فأقفز في عباراتي إلى النقاء كي لاتلوث بقصده السئ، وعند البازار الذي ابتعنا منه ما نحتاج التقينا هناك بالفتاتين الإيرانيتين .كان هو يتحدث بلغتهن كونه يجيد الفارسية ودون أن أسأل قال لي إنه في زمن ما كان في إيران..لم أستغرب فأكثر الفارين من العراق يدخلون إيران عن طريق الشمال ثم يتلمسون طريقا للهروب بشكل أو بأخر ..فكان هو مثل غيره إلا آنه كان يمتلك الجسارة والمجازفة والصلف وهي صفات مكنته من أن يمتهن التهريب .. لقد كان يهرب كل شيء.

لم يكن يأتي الى هذا المنزل البائس إلا نادرا .

وحين يدخل علينا بعد كل غياب كنا نلاحقه بنظرات ترقب ..كلنا ينظر إليه، بات وحده يؤسس وجه الخلاص ووحده يسن قانون البقاء ونحن كنا نقتسم البؤس واليأس حيث الوقت يمر ثقيلا ، يأتي منجدا يسوقنا لنهاية ما لانترقب سوى الخلاص ، وهاهو أخيرا بعد أكثر من عشرين يوما يأتي إلينا باردا يحدد منتصف الليل موعدا للخروج من هذا البيت الكل يفرح بحذر.. يفرح اللاشيء يفرح كل منا للمجهول وأنا أعلم أن القادم هول ومرار فحين استبعدت عائلة أبو محمد من مشوار منتصف الليل القادم إلينا لاأحتاج عبقرية للفهم، أذن هو مشوار عسير وعلى هذا الأساس أستبعد منه الأطفال ...كنا قد ألفنا الظلمة. خرجنا سربا، يتبع أحدنا الآخر كلنا نسير خلفه، كنت أشعربأنفاسه تتربص بي وأنا أتربص بمشاعري كي لاتتبعثر ويصبح جمعها أمرا محالا. ندخل غابة أخري وخوفا آخر.. كأننا سراق يتبعنا الخوف لآمال ترمم خراب ذواتنا خلفه دائما كلنا يسأل إن كان الأمر سينتهي الآن ولكن النهاية ربما هو أيضا يجهلها لاندري ...يوزع علينا الحذر يشير لنا همسا بقينا ساعة أو ربما أكثرنسير دون أن نسأل أين أو كيف ربما نسير حول أنفسنا ولاندري ..وأخيرا وبضوء تليفونه النقال أعطى إشارة لشخص ما وها هو الآخر أمامنا يخرج من بين الأشجار كشبح موت لنصل أخيرا إلى ضفة نهر كبير ..نركب جميعا القارب الليل ساكن لاموج يحرض السكون سوى صوت المجذاف كان يضرب المياه الخرساء فيصنع موجات يمزقها وجه القارب نصفين كنا نرى الضفة الأخري ولكن الأمرعسير، نحن نقترب و الضفة الأخرى

تبتعد  ننشغل بلعبة الوصول  وينشغل الخوف بنا وفي القارب جلس قريب مني فهمس بأذني.

- هل تجيدين السباحة؟

فأجبته دون تردد

- أجيد الموت

.صمت قليلا كأنه يفكر في شئ ما اقترب بأنفاسه المشبعة بالرغبة والدفء..همسا .قال لي

..إذن سنموت معا

يهبط علي هاجس النهاية ، أسال الخوف لو أنني أموت غرقا الآن بأي سبب يسجل  موتي ..أيكون الفراغ الذي  يسكن أوصالي ..حين يسكن الصمت فراغ اللحظة ألا يكون لديك ما تموت من أجله ..أنا لا أدري ماذا هناك في الضفة الأخرى ليكون سببا يستحق الموت ..  وهل يكون الغيب هناك جنة أحلام ..وليس حلما وحيدا جئت به من بغداد إلى حيث لا أعرف..أو ربما يكون الموت هو الخلاص من مجهول ينتظر في الضفة الأخرى.

لم أقاطعها كأنني أصبحت أبحث معها عن خلاص ..أو أن أمسك لها الضفة الأخرى...بينما تابعت خوفها من تكرار الألم ..أشعلت سيجارة أخرى ..واندست ملامحها بين صفحات حزن عميق بدأت تقرأ ذاتها ..تركت لها الصمت لتمرر عذابات الطريق ..لم ننشغل بالوقت لأنها قررت أن تبيت عندي بعد إلحاحي طبعا

بعد أن شعرت بأنني في حاجة لأكتشف الآخرين، بعد زمن من الوحدة سئمت منها وسئمت مني ..كنت أبحث بها عن إنسان ما يشعرني بالحياة ..بعد حروب تآكل بها عمري..إنسان ما يرمم معي الخراب ..أجند انتباهي لها لتقوى كل شئ مرة واحدة تنتزع آخر ظلمة سكنتها ..وآخر غصة علقت بصوتها.. تابعت نجاة مرارها...

- المهم لم تكن هذه هي نهاية المشوار.يرسو القارب تترجل منه جميعا كنت أشعر بأن المكان يشبه الوادي ..لانري شيئا كلنا يشعربشكل المكان من خلال خطوات شاقة خطوات صعود .. هكذا نصعد إلى مكان مرتفع نترك الوادي نصعد إلى حيث لاندري ..أفكر بالقمة نعم تجرأت بالنظر إلى الأعلى ولكنه أمرنا أن نخفض رؤوسنا ..أحسست أنها قمة لاتعنينا ..ولكي لاأفترض إنها قمة النجاة فترضتها فوهة بركان ..تناسيتها انشغلت بالآمي الكثيرة فها هي قدماي تخذلانني فلم أعد أستطع المواصلة ..ولكنه همس بي غاضبا

- لاوقت لنا يجب أن نسرع ..

أخافني مرة واحدة أمسكت بالحقيبة التي كان يحملها على ظهره اتكأت عليه كمن يستجدي عطفا ما...تكلم مع الرجل الذي أرشدنا للقارب بشئ ما ثم التفت إلينا وهويشير للجميع بأن يتوقف تكلم لنا بصوت منخفض..أن نكون حذرين فالمكان الذي سنقطعه الآن هو عبارة عن بحيرة متجمدة .....كان يتحدث عن المكان كأنه يعرفه جيدا ..كنا نحن قطيعا من المغيبين في برد

قارص وخوف جديد هذه المرة نعرف من يكون، هلاك أسفل قدمك ربما يتهشم الجليد فنسقط في غياهب بحيرة مجهولة في أطراف سلوفينيا..البلد الذي ماخطر ببال أحد منا أن يدونها في دفتر أحلامه يوما ما ...أخافتني فكرة أن أكون الأولى ..هم كلهم أشجع مني حتى الفتاتين كانتا أفضل مني . يمتلكن روح المغامرة .. أما الفتاة الأخرى التي كانت مع زوجها الشاب ..راق لها أن تكون معه تتأبطه ليعبرا البحيرة معا ..ربما فضلت أن يموتا معا على أن تتركه معنا وتأكله إحدانا ..في هذه اللحظة فقط تذكرت أنه رجل ..المهم أفلح الجميع في العبور جاء دوري أخيرا لم يبق سوانا نحن الاثنين، لنا وحدنا هذا العراء ..لم يطأ خلدي غير الخوف لا أستطع العبور، اقترب مني غاضبا وهددني إن لم أعبر وبسرعة سيضطر لتركي هنا .. كان يتكلم بقسوة وجبروت نعتني بالغبية ..بالجبانة وبعد أن فشل في إقناعي ركلني بقوة أوصلتني إلى منتصف البحيرة سقطت على وجهي، بدأ الدم يسيل من جبهتي ..كان قلبي يرتجف خوفا و مرة أخرى أخافني صلفه ..في لحظة واحدة تحول إلى نمر شرس..وأصبح كل شئ..وهكذا كنا مع السرب ثانية.

يلفنا التعب والجوع والبرد ...افترشنا الأرض استلقيت بكاملي على الأرض، جميعنا تناثرنا على أرض لاتعرفنا وثلج غريب ..والوحل يملأ ثيابنا مستلقية على ظهري لا أريد النهوض يتساقط الثلج على ..لم أستطع حمل يدي لأغطي وجهي بها ..واذا هو بجانبي يعتذر همسا يدفع بكلام عذب إلى نفسي يملأني بالدفء ..أصمت أدير وجهي عنه..كأنني أقول..لاأريد أن

أحبك ..أنت لاتشبهني لماذا تدخل دائرة حلمي ..آدرت وجهي كي لا يرى ضعفي..أوربما أدرت وجهي كيلا أتورط بحب رجل لايليق بي ..رجل يتاجر بأحلام البشر..غابت عني كل حواسي مرة واحدة..ذهبت بي إلى حيث لا أحد ..كنا جميعا نقتسم الأنين والبرد....نهض هو أولا علمنا أنه يستأنف الموت ثانية سرنا خلفه ..مازال الثلج يتساقط.. ويتساقط معه الغيب وأنا أفترش كفين ترتعشان . عليّ أفهم سؤالا يسير معي أبدا والغيب بكفي لا يجيب ..أسير مع الآخرين نحن جميعا نقتسم الفراغ ..هم مثلي كان لهم مدينة تسكن دواخلهم، كان لهم أهل وحديقة دار يشاهدون التلفزيون وتعرفهم الشوارع لهم أصدقاء وجيران يتعلمون ويغنون وكانوا مثلي يضرسون جوع الحصار ولهم وعود مؤجلة . وأحلام مؤجلة ولكن في هذا المكان غاب كل شئ حتي وجوه الأمهات .صارت بعيدة ..تبحث في هذا المكان عن ألفة ما أو نهاية نحتمي بها من قسمة عادلة بين الخوف والبرد ..تسبقني يداي وأنا أزيح بها أغصان الأشجار المتشابكة الجميع يفعل ذلك بحذر دون أن نحدث جلبة ..شعرت رغم البرد بالعطش ..وبقصبات عنقي تتصلب وفمي يجف ..داهمني اعياء شديد ..بدأت أنفاسي تضيق ..سمعت إحدى الفتاتين تبكي بأنين .كانت أختها تهون عليها الأمر ..تؤملها بنهاية قريبة شعرت كأنها تدس لي شيئا من الأمل .

جلبة وصوت أحد الشباب غضبا وتعبا ينشب بينه وبين حيدر شجار يتدخل الجميع يهونون من الأمر لقد أخافني الموقف لم أر المسدس ولكنني سمعت حيدر يهدد به( إذا ما اتسد حلكك أفرغ هذا المسدس برأسك) ولكن الرجلين الكبيرين يهدئان الموقف كان

الشاب الذي بدأ الشجار يتهم حيدر بأنه خدعنا ولم يقل إن الطريق سيكون بهذه الصعوبة ..ولكن عدنا نواصل السير ثانية.. وقبل الرابعة بقليل وقف حيدر توجه لنا بالكلام وقال إنه يجب علينا أن ننتظره هنا وأنه يجب علينا أن نترقب إشارة ضوء سيرسلها لنا من تلفونه النقّال حين ذلك علينا التوجه بسرعة صوب الإشارة ثم سأل

- أين أنت...

ويقصدني طبعا فقال لي يجب أن أذهب معه وألا أبقى هنا مع الآخرين لأنه لا يضمن أن أتحرك بسرعة ومن ذلك قد تحدث مشكلة ما ..وهكذا ذهبت معه وتركنا الآخرين خلفنا ونحن نبتعد عنهم شعرت بيده تبحث عن يدي قال لي ألا أخاف فهو لا يقصد شيئا سيئا إنما فقط يريد مساعدتي لنصل المكان سريعا.. كنت أشعر بإبهامه وهو يحركه برفق على ظهر كفي ..كان إبهامه يتكلم نيابة عن الصمت ..المسافة لم تكن طويلة فكان لابد له أن يدبر أمرا ما ترك يدي وأحاط خصري .جذبني بقوة نحوه .. أخافني ..رفعت يده عني بقوة كدت أصرخ إلا أنه وضع يده على فمي ..وهو يعتذر وأخبرني أنه لم يقصد شيئا فقط أراد أن يختبرني .تابع المسير وأنا خلفه.. حتى وصلنا قرب بيت صغير..وبعد عتمة أربع ساعات أرى الأنوار ثانية ..تنبعث من شبابيك المنزل .على مقربة من المنزل . قال لي أن أنتظره هنا وسوف يعود إلي سريعا اتجه نحو المنزل وإذا بالباب يفتح عن امرأة شقراء بدينة ترتدي معطفا أحمر طويل ..يتكلم إليها بلغة تفهمها لا أدري ماذا قال لها

وهو يداعب وجهها بيده التي كانت قبل قليل تمسك بي ... أبتسمت له بدلال مفتعل وهي تدخل المنزل وتغلق الباب.. عاد إلي ثانية .. .أعطاني حقيبته وقال لي أن أبقى هنا ليأتي هو بالآخرين.. وبعد أقل من عشر دقائق كان الجميع معي .. آدخلنا حيدر إلى مكان اقتسمناه مع ثلاثة خنازير ..نبلع هواء المكان الفاسد ..علق في سقف الزريبة مصباح واحد .استلقينا جميعا على أرض الزريبة المغطاة بالحصى. بدأ الشباب يدخنون السجائر والدخان يتصاعد نحو المصباح الوحيد ..دخان يشكل الأسئلة..التي تبحث عن إجابات ليست موجودة في هذا المكان..كلنا يسخر من حلمه الذي ينتهي في أقذر مكان في العالم..يدخل حيدر وهو يحمل بعض الخبز واللبن .. يضعه بيننا وهو يطمئننا. بأنه فات الكثير ولم يبق إلا القليل.. بدأت إحدى الفتاتين تتقيأ شعرت وكأنها تخرج كامل آحشائها وتقترب من الموت، ولن تكف الأخرى عن البكاء حتى عندما أخبرتها أختها أنها بخير.أحضر حيدر قليلا من الماء لتغسل الفتاة وجهها والتفت الينا لنتهيأ للخروج ثانية.مازح أحد الشباب الخنازير الثلاثة ..وهو يذكر اسمه للخنازير يأمل فى ألاّ يلقاها ثانية .. ضحك الجميع وأحد الشباب حمل الفتاة التي خارت قواها .. اتجهنا خلف المنزل تناوب الشباب على حمل الفتاة.حتي وصلنا بعد مسير نصف ساعة إلى بحيرة يقف بجوارها رجلان ينفخان بقارب مطاطي .أنضم لهم حيدر أنجزوا المهمة .. في حين كانت الأضواء الكاشفة تتحرك على وجه البحيرة ليتضح ضباب يشاكس الضوء..دقائق قليلة جميعنا أصبح في قعر القارب.كنت أتابع الضوء لعلي أرى

ضفة، ما ولكن لاشئ. كانت السماء تلتصق بأطراف البحيرة .. بينما ظل هو طوال الوقت يذكرنا با لحذر ..شعرت بغياب الخوف مؤكد أنها لم تكن شجاعة إنما هو أستسلام حواسي للقدر .. نصل أخيرا الأرض .. خرجنا من القارب والتفت أحد الشباب الذي تميز بروح الفكاهة ملتفتا إلى حيدر يسأله (ها عيني أكو بعد شئ؟ تره مبقة غير الرمال المتحركه).. استطعنا أن نضحك ثانية.. أخبرنا حيدر أننا سنسير في هذه الغابة ففي نهايتها نكون في منحدر بسط يوازي الشارع العام وأخبرنا أننا سننتظر نصف ساعة تأتي سيارات تتجه بنا إلى الجنوب ..كأننا نسجل في لحظة فرح انتصارنا الأول حين يقول سنكون في فينا..أراهن أننا جميعنا تذكر أسعهان ..كلنا تمنى لحظة أنس لا ليلة .. البرد ما زال يجلد الوقت الذي نرتديه .اختفت النصف ساعة أسفل الثلج ولم يأتنا أحد اضطررنا آن أن نسير على الشارع العام غريبي الهيئة لا يتوقف لنا أحد ....ولكنه أخبرنا أننا تجاوزنا أمكنة الخطر يستطيع أي منا أن يستأجر سيارة ويذهب إلى أقرب (كرخي) وهذا هو اسم المكان الخاص باللاجئين في النمسا

وينتهي هناك الأمر متمنيا أن لا تطلب منا بصمات الأصابع ليتسنى لكل واحد أن يحدد وجهته التي يريد .

ألبستني كلماته الحيرة والقلق ثانية..ولكنه اقترب مني سار بجواري كأنني أستبدل به الحيرة .. غامض يعرفني ولا أعرف شيئا عنه يدس صلفه همسا .عاد بنبرته الأولى التي تمرر بين كلمة وأخرى مساومة ما يتظاهر بأنها غير مقصودة .. ولكنني

أنجح أخيرا وأنا أحاصره بوعده لي أن يوصلني إلى ألمانيا.. بدا وكأنه يفكر في أمر ما وهو... يقول لي :

- على شرط ..

هنا توقفت عن المسير في درجة حرارة تشكل رقما ما أسفل الصفر توقدت أوصالي إنهمرت عليه بوابل من كلمات الرفض لكن وعوده تحفزت في داخلي كرامتي التي ظننت أنني تركتها في زريبة الخنازير ..تبعث ثانية..تحولت إلى امرأة تعنيني امرأة تشبه أمي صرخت من أعماقي.

- لا أريد شرطا

لا أريد منك أي شيء

ولم أعد أسمع سوى صوتي الذي يقاطع صوته وهو يستبدل الأمان بكرامتي وكأنه يمتلك الأمرين..تركته واقفا وسرت بعيدا عنه تركته لذهول لم يألفه أبدا لحق بي أمسكني عن يدي أخبرني بأنه لم تمر بحياته امرأة مثلي.. أوقفني بقوة وقال لي قبل أن أفتح فمي بالمزيد كلمة واحدة:

- (نتزوج)

وبحق أنني لم أتفاجأ وكأنني كنت أنتظر هذه الكلمة وأجبته بسؤال

- نتزوج ؟ وهنا تحت ثلج يتساقط .. ؟ في هذا العراء البارد .. ؟

- نعم هنا والآن

أجبته أيضا بسؤال لفته سخرية اللحظة المقصودة

- الآن....؟

أمسك يدي وكأنه يدخل أوصالي منها حين قال

- فقط قولي متعتك نفسي وستكونين زوجتي أمام الله

مازلت ألبس صوتي سخرية متعمدة

- ماذا سيكون مهري ؟؟

أجابني دون تردد..

- عمري كله ألا يكفي

- وهل وجدتني فتاة تستحق عمرك كله؟

ابتسم بمكر وهو يجيب

- نعم ..وتابع ...طوال الطريق كنت مهمة شاقة وحين أمسكتك هناك أحسست أنك أرض لم يطأها أحد..تتفردين بحياء لم أجده مع امرأة أخرى ..أنت امرأة أخافني ضعفها.. وأنا الذي لم أعرف الخوف في حياتي.

كانت كلماته تلك وكأنها أوسمه تعلق على صدري أتفرد بها دون نساء الأرض جميعا

رفعت وجهي إليه وأنا أقول (متعتك نفسي إلى آخر العمر)

ظل الثلج يهطل علينا ونحن نسجل أول عناق.

تذكرتني أطراف الفجر الذي سجلت عليه عناقها بالفجر الذي يتسلل الآن إلى شقتي ولكنه في أواخر حزيران يأتي باكرا ربما تتساقط به الأمطار ولكن غالبا لا تتساقط فيه الثلوج تركتها مع طفلتها ودخلت المطبخ لأعد القهوة.. حيث شعرت بأنها تريد أن تصل لأمر ما تقوله لي.. عدت وأنا أحمل كوبي القهوة .. ما أن رأتني أشعلت سيجارة . شيئا ما يشبه الانتظار هكذا كان ما تشكله ملامحها..دائما وما أن جلست أنا حتى واصلت

- المهم عند السادسة والنصف وصلنا إلى المكان (الكرخي)..كان الكل قد سبقنا إلى هناك وأمام الباب الخارجي للمكان كانت هناك غرفة الحرس لا يسمحون لأحد بالدخول إلا عند الساعة الثامنة .. كانت ملامح البرد تشتد قسوة في ساعات الفجر الأخيرة وما زالت أمامنا ساعة ونصف الساعة ليفتح الحارس الباب ، كان ينظر إلينا وكأنه لا يرى، أحدهم يجلس على كرسي وأضعا قدميه على مدفأة زيتية كانت أمامه ننظر إليه من خلال النوافذ الزجاجية التي أزيحت عنها الستائر ليتمكنوا من رؤيتنا أو بالأحري لنرى كيف يتلذذ الحارس بالدفء ونحن تتجمد أوصالنا إلى أخرها.. لم تكن ساعة ونصف بل كانت عاما ونصف..

دخلنا إلى ألمانيا معا إلا أنه أصر على ألا نعلن زواجنا هذا ..حتى نتبين كيف ستنتهي الأمور وهذه هي المرة الأولى التي يسجل لدى الحكومة الألمانية كلاجئ فهو طوال السنوات التي إمتهن التهريب لم يفكر في دخول ألمانيا ... كانت تجارته إلى حدو أحلام الآخرين، بإلحاحي دخل معي بشرط أن أحافظ على سرية هذا الزواج.

وما كان أمامي إلا الموافقة..المهم أن يكون قريبا مني .. لأسباب كثيرة أهمها الأمان وهذا ما لم أجده معه ..فحين تمكن مني ..انتهت الدهشة .. بت سهلة المنال .. رخيصة .. .. بدأت أشعر بسخريته..أنا نفسي عندما كنت أرى وجهي في المرأة وأتفحص ملامحي لا أجدني فيها .أري شيئا آخر لا أعرفه ..شيئا لاينتمي لأمي ..ازداد بؤسا ..كلما التقيت به سرا ..نسرق لذتنا كلما سنحت لنا فرصة انشغال الاخرين ..فما زلنا نسكن مع الآخرين في تلك البنايات الخاصة بطالبي اللجوء ، خصص لكل واحد منا يوم ليقف أمام المحقق .. ليذكر سببا يمنحه اللجوء...لم يصدقني حيدر حين قلت له إنني لا أستطيع الكذب ، ضحك يومها بصوت مرتفع.. وبسخرية لن أنساها ما حييت ..حين قال لي

- حقا أنت لم تكذبي أبدا؟؟

وعاد يضحك بقوة ..وهو يقول

- حسنا حسنا سأقول لك ما عليك قوله ولكن يجب أن تصدقي أنت آولا لكي يصدق المحقق قصتك..قولي إن أباك أعدمه صدام ..

وأخوتك الآن في السجن ..وإن والدتك ... وهنا صرخت به أن يتوقف

- ماذا تريدني أن أقول عن أمي ياحيدر ..هل سجنها صدام هي الأخرى ؟

- لا حبيبتي ..قولي مثلا إن والدتك خافت عليك أن يكون مصيرك مصير أخويك ..وهذا الأمر صعب على فتاة مثلك لهذا فضلت الهروب من العراق .

كلما كنت معه أشعر بنظرات الآخرين لي .. دائما كنت أخفض رأسي .. شعور بأني لست أكثر من ساقلة استبدلت عزة النفس بالدونية استبدلت أهلها برجل لايفوت فرصة دون النيل من كرامتها..

وقبل بدء التحقيق أخذت لي صور كثيرة أخذت لوجهي من جميع الجهات صور مثل تلك الصور التي تؤخذ للمجرمين.واللصوص .. تذكرت صوري التي أخذتها عندما تخرجت من الجامعة تذكرت فرحة أهي عندما علقو صورتي تلك على الجدار وأخرى دسها أخي في محفظته كي يقبلها كلما اشتاق لوجهي..فرق شاسع بين صورة توثق لحظة زهونا وأخرى توثق ضياعنا.

(هنا قاطعتها بما كان يهمني ..وهو أن أعرف كيف كذبت أول مرة ..وتمنيت ألاّ تستيقض ابنتها الآن .. ُريد أن أكتشف فيها ما شعرت بأنه يعنيني ..بلهفة.. ففي كل ما فات ..كانت مغيبة .. ها

هي حرة الآن ..هل ستكذب..؟  وتركت للصمت سؤالا واحدا .. ترى ماذا يعنيني إذا كانت كاذبة .. ؟..أنا لم أعرفها إلا يوما واحدا .. و كشفت لي عورة حلمها..ألايكفي هذا لتكون صادقة لدي ..ومن أكون لها لكي أفرض عليها عدالتي أو ظلمي ..ثقبت صمت الأسئلة.

- لم أستطع أن أكذب...جلست أمام المحقق يكرر الأسئلة وأنا أغيب في صمت التردد..أنهمرت دموي لتجيب نيابة عني .. وها أنا أنكر قصتي ..كما هي

اختلطت عباراتها ولهفتي وأنا أرشق السؤال

- لم تكذبي أذن ؟

_ لا لم أستطع . قلت له إنني تزوجت من رجل وضيع مجرم وهارب تنكر لي وتركني، وأنا مدانة أمام عائلتي ..  لذا أفضل الموت هنا على الرجوع إليهم أحمل عار إثم ارتكبه القدر نيابة عني

تعاطف معي المحقق .. حين وجدني صادقة ولا أدري لماذا شعرت بغبطة الصدق الذي يحرر عبدا .. كان حيدر مايزال واقفا أمام الباب يتنظر كيف  ستسير الأمور معي ..

هذه المرة الأولي بعد هزائمي الكثيرة أمامه أشعر بلذة الانتصار . هل لأنني قلت عنه ما يستحق أم لأنني تركت لأهلي كل الصدق لتواريخهم النقية ؟

هكذا تنتزع نجاة آخر غصة لتحضن ابنتها وتنام .

..وبقيت أنا مستيقظة أنظر إلى ملامحها التي تغيرت تماما الآن .

كأنها خلعت أوجاعها وغفت في غيم أبيض واتجهت أنا صوب النافذة أزحت الستارة عن نصفها لأنظر إلى حيث لا أدري .. أبحث عن استفهام واحد تركته هي لي ونامت ترى لماذا فتاة مثلها تتزوج رجلا بهذا القبح ..أيكون عشقا ندمت عليه نتبعه بكامل إرادتنا لأي هلاك يريد؟

المرأة دائما أزمتها رجل.. أن كانت بكامل حريتها أو بناقص حريتها ..

استدرت برأسي ونظرت إليها وهي مازالت نائمة ..ترى بماذا افترضت أننا متشابهتان فبعد ما سمعت منها اكتشفت اختلافاتنا هي متسرعة تندفع صوب الكلمات وأنا أؤسس لكل قرار، جدار من التردد أمسك باللاءات إلى أقصاها هي شي آخر أو ربما دهشة اعترت لحظة حزن مشترك .

لم تستهوني فكرة تحويلها إلى لغز وآثرت أن أنتظر ليتسنى للأيام أن تكشف عما أجهل من مشاعري وعدت لألقي بكامل جسدي على الكرسي ومددت يدي إلى الطاولة المجاورة سحبت دفترا قديما رافقني عمرا كنت أدون مشاعري عليه ربما يكون هذا الدفتر هو أحد الأسباب التي جعلت، زوجي يفضل الانفصال ويذهب إلى بلد آخر ليتركني أعيش بوهم قديم لم يفلح هو بانتزاعه

مني.. وأنا أفتح الدفتر لأدون شيئا ما أخرجت منه رسالة كنت قد كتبتها إلى (ماجد) هذا هو اسم سيد أوهامي الذي تعودت أن أكتب له رسائل كثيرة ولأنني لا أعرف له عنوانا كنت أرسلها إلى دفتري وأعيد قراءتها كلما دفعني الحنين لذلك كتبتها قبل خمس سنوات عندما كنت مع زوجي نسكن في قرية جنوب بافاريا Aidenbach

(بسم الله الرحمن الرحيم ..

.اليك أكتب .

.الليل وما زلت وحدي ..

حيث لا تبدأني النهارات أبدًا ..فما بالك أيها الليل تدس دقائقك الباردة تحت وسادتي وما بال أغطيتي لا يتنفس فيها غير الفراغ ..كم تمنيت أن أنام بترف ودون عناء.. وما بال وحدتي تعتصر آخر أمنية للشهيق وأعاود انكساري كلما أزحت النهار باللا شئ ..ولا معنى ترى من أسس لهذه الروح مجد الضياع والخسارات؟ في الليل يمر قلبي بكل محطات القلق والخذلان ..و حيث وحدي افترش الذكريات والندم على ما فات وعلى ماهو آت

هنا في هذا المكان في غابات باير أصفف شعر الوقت وأدندن أغنية الأسى كل مساء حيث تتناسل العجائز بذكريات باردة يملأن الشوارع ويملأن نفسي ..عبثا أحاول أن أسحب أذني إلى موسيقى ربما ستأتي ؟؟...ربما وعبثا أسحب غابة Aidenbach نفسي إلى النافذة ( قد أتعلم كيف يولد الصباح) ولكن القلق

والبرد ..آه لو تدري عن جليد الروح هنا

في ذات مرة وفي ذات انتظار في مساء قصي ..وفي ساعة متأخرة من عمري ( فتحت الباب ) ترى من يأتي في هذه الساعة الباردة ؟ كانت أنفاسي تتسابق بين لهفة وخوف ,عندما كنت تقترب من سريري من نفسي .بالعناق كنت تجمعني ..عناقك يحفز خلايا الهمس التي جفت لطول الفراق ( افتحي عينيك أشتهي الكتابة هنا).

كان جسدي يحاصرك بالاشتهاء ..أحاول بعناء أن أوقف لهثي أو أن أستدرج السكينة عندما اندست شفتاك تزيح ستائر أزمنتي تتكشف شموسي التي غابت طويلا خلف جبال من جليد الأزمنة..

اختلطنا ماء وترابا عندما كانت قبلتك الأخيرة أعذب ما في اللقاء ..ولكن في الصباح تأكدت من خيبتي فلم تفتح بابي وأنك أبدا لم تأت وأنني أبدا أبدا أبدا وحدي أشاطرني المعاني التي جفت لتلك القصيدة التي لم تكتمل في حلمي .

وحيدة أنا أرتب خيباتي وأتسلى أحيانا بوجع الدقائق وحين يفيض الوقت البارد أخلد إلى عناء الأزمنة المستحيلة وكم صارت احتمالات النهاية أقرب ..أنا بلا وطن عندما غابت نوافذك ..حتى عندما تتسلل إلى نفسي موسيقى الذكريات ..تجرني هي الأخرى إلى أقصى حدود المستحيلات ..ربما .. وعسى ... ومازلت وحدي حتى الأن ذات الحلم يأتيني وذات الأصبع تمر على جسدي حتى الآن أكتبك باشتهاء وأؤسس لك حلما آخر ( وحدي ) ولا

أنكر أنك وعدتني أن نبدأ دائما .. ولكن مابال نفسي ترتب النهايات كلما يهبط الليل ... والليل إما حلم أتمنى أو حقيقة الوحشة والانكسار والفرقة .

لأ أنكر أيضا أنني في أغلب الأوقات أتسلى بأكذوبة أن أراك وأعرف أنه المستحيل ..فلم تعد لي ..وربما تستسخفني ..أقول ربما ..الحقيقة الوحيدة أنك لم تعد لي ).

وأنا أطوي الرسالة وأعيدها إلى قلب دفتري وأنا أسأل نفسي. أيكون زوجي حقا لم يقرأ رسالتي هذه التي كتبتها قبل خمس سنوات لرجل آخر ..وهو نائم بجواري على السرير .. أم أنه افترض أنني أتسلى وليس أكثر حين أمشط الوقت بالكتابة حتى هذه اللحظة لم أعترف إنني خاسرة .. حين استبدلت رجلا بمواصفات نبيلة مثل زوجي بوهم سرق عمري.

نظرت إلى براء كيف تلتصق بصدر أمها يتبادلان الحنان .. وتساءلت تري لماذا لم أساعد زوجي لنكون عائلة تقتسم الحب الذي يخلقه الصغار ..لماذا ملأني الغباء وضاع كل شئ .

حتى هذه اللحظة لم تحن ساعة الندم بعد.. أم أنه الند م الذي يحرض السؤال...أسندت رأسي إلى الخلف وسرقتني إغفاءة قصيرة .. صحوت على صوت براء وهي تطلب من والدتها أن تأكل بينما تضع نجاة أصابعها على فم طفلتها وتهمس بها أن لا تزعجني.. فتحت عيني وأنا أبتسم لبراء قفزت هي إلي وحضنتني .. لم استطع الآن وصف سعادتي بها وبتلك اللحظات التي

اختصرت الحب والبراءة وبإحساس طيب هو أنني لم أعد وحيدة تناولنا معا وجبة الإفطار المتأخرة .. وكانت نجاة لا توفر فرصة للإعراب عن سعادتها لأنها تعرفت إلي وظلت براء تمارس طقوس الفرح والفوضى .. تذكرنا أن نفتح التلفزيون لنشاهد الموت يسجل أشكالا جديدة بين تفجير وعمليات اجتثاث لم تميز بين الأخضر واليأبس وأكثر الأخبار رعبا أجتثاث العلماء تحت تسمية أخرى كأنها لعبة شطرنج الفوز بعد كلمة الموت دائما .. يتمدد شهرا كاملا بعد أن أوقفوا الحرب ومازال الدخان يتصاعد من المشهد.

يعترينا الهلع ونحن نلاحق العناوين التي تكتب أسفل الشاشة ونلاحق الفوضى يوزعنا الصمت في مساحة القلق بينما تشاكسنا براء وهي تسأل عن كل شيء وأحيانا أسئلة كبيرة جدا .. وما زالت تلح على والدتها أن تنتبه إليها وهي تشير إلى التلفزيون بأصابعها الناعمة ..

- ماما هل بابا هناك

- نعم حبيبتي وسنذهب إليه

ولا أدري هل كانت هي متأكدة من ذلك أم هو مجر قول ما لتكف طفلتها عن الأسئلة؟ ألح علي الفضول . سألتها وما زلت ألصق انتباهي بتلك المشاهد :

- حقا؟

أجابت وكأنها تتحدث عن رجل لا يعنيها ..

- بحق أنني لا أعرف أين يكون .. لأنني تعودت الآ أسأله إلى أين هو ذاهب ففي كل الأحوال لن يكون صادقا .. حين يجيب وتعودت أن لا يعنيني الأمر إلا أنه في آخر مرة كان عندي سمعته يهاتف صديقا له ويخبره بنيته الذهاب إلى هنكاريا.

مرت عبارتها الأخيرة متزامنه مع مشهد معاد للحرائق والنهب الذي تعرضت له المكتبة الوطنية.. الفكرة تشنج رأسي أيكون زوجها واحدا من تلك المخلوقات التي ذهبت إلى هنكاريا ليتدربوا كادلاء للجيش الأمريكي ..ولم لا إنه يملك مواصفات تؤهله لعمل دنيء..شعرت بالغثيان ..تغيرت ملامحي مرة واحدة وتمنيت لو أنها لم تقل ذلك ..

ملأني الضيق ..إلا أنني بدأت جاهدة أن أستعيد نفسي لكي لا أسقط على الموقف ما لايستحق فليس لنجاة ذنب في هذا الأمر إن كان فعل ذلك أو لم يفعل .. فهي في كل الأحوال قد أخلت انتماءها لسلوك هذا الرجل حين قالت (لا يعنيني الأمر ).. القرف والاشمئزاز ينتابني كلما ذكرت لي اسم زوجها . وكأنها قرأتني حين قالت:

- أسمعي يا إلهام كل أمر كبير يبدأ بالنية ..وهذا الرجل بنية فاسدة.. ألبسني مهانة لاتستطيعين تصورها.لقد تعبت كثيرا ليعلن زواجنا أمام الناس ..وحين فعل ذلك شعرت بأنني أستعيد أدميتي ..فلم يعد يعنيني ..لقد قبلت حتى بالمساومة الدنيئة وهو يطلب مالا .. وأفقت وكنت أقطع من قوتي وقوت ابنتي ليرضى لأنني ربما

أعود إلى العراق ولا أريد أن يسألني أحد سؤالا لا أستطيع الإجابة عنه ....

- أفهمك

وهي تنهض من مكانها

- يجب أن نذهب الأن لقد أزعجناك بما فيه الكفاية

نهضت من مكاني وأنا أرد عليها بمحبة

- على العكس إنه أجمل أيامي

وأثرت أن أوصلها بسيارتي فلقد اشتريت الكثير من اللعب لبراء وأظنها لاتستطيع حملها جميعا بمفردها وأيضا كانت فرصة لأعرف أين تسكن .

جلست نجاة بجواري وأنا أقود السيارة لتبدأ بسؤال لم يخطر ببالي أن يسألني أياه أحد..

- هل أنت سعيدة لأنك حرة؟

الحقيقة لم أفهم عن أية حرية تسأل فأجبتها بسؤال وأنا أشير إلى حزام الأمان الذي يحتجزها بمقعد السيارة

- مارأيك بهذا ؟

أجابت دون تردد:

- حزام أمان

- ولكنه يشبه القيد إلى حد ما أليس كذلك

- نعم هذا صيح - ولكن ما علاقة هذا بسؤالي ؟

- كل امرأة تحتاج قيدا ليوفر لها الأمان .. أنا لاألعن الحرية ولكن

قاطعتني

- وأنت ؟

- أنا بخير الآن

- وغدا ؟

- أعرف أنك تريدين إجابة طويلة ... أشارت إلي أن أتوقف في نهاية الشارع حيث تسكن وحينها ترددت بالنزول كأنها تريد أن تسمع المزيد ..ابتسمت لها ودعتها بأجمل ما خزنت ذاكرتي من كلمات محبة ..أما براء فمازالت خلفي أمسكت رأسي أدارت وجهي وطبعت على خدي قبله جعلتني أنزل من السيارة ضممتها إلى صدري ودرت بها مع قبله طويلة غادرت المكان وبقيت نجاة وبراء على الرصيف يلوحان لي ويرسلان القبل وأنا ابتعد حاملة معي سعادة أخشى ألا تتكرر.

وها أنا في بيتي تغزلني الوحدة ثانية ولاتزال بعض أثار براء مبعثرة على الأرض ،بل مازالت رائحة صوتها تسكن المكان ..أمسك خدي حين أتذكر قبلتها الأخيرة .. ترددت وأنا أفتح التلفزيون فلا أريد بعد وجه براء أن أرى أحدا و ..عدت إلى

الهاتف لقد وجدت زوجي تاركا رسالة صوتية بهذه أيضا ترددت دواخلي ..هل أسمعه الآن .. كنت لا أريد أي شئ يفسد هذه اللحظات .. وإن كان زوجي لم يفعل هذا أبدا لقد حرص دائما على لا يتكلم إلا بما يجده مناسبا .. ولقد خمنت أنه شئ مهم الذي جعله يترك الرسالة .. لقد قال لي آخر مرة إنه يترك لي كامل حريتي لأرسم خريطة ما تبقى من العمر .يعلن هزيمته أمام البرد الذي ما لامسته نسمة جنوب دافئة ..أختزل أخيرا كل قراراته المؤجلة بالرحيل .. وفي هذا الأمر أيضا لم يغيرشيئا وكأنه دخل وخرج ولم أشعر بوجوده يوما ما ..كل منا يبلع ذاته وينتظر ..

يؤسس مناخا لحلمه قد يكون ممطرا بالرغبات..ولكن البرد مساحة شاسعة .. ونحن لانمتلك وسائل الوصول..

ألقيت بكامل جسدي على الكرسي الذي كان بجوار الهاتف ..وجاءني صوته

( عزيزتي إلهام ولا أقول زوجتي إلهام كي لا تظني أنني أمن عليك بالحرية التي منحتك إياها ..المهم لقد اتصلت ببغداد وأهلك وأهلي بخير ..سألوني عنك فقلت إنك بخير وهذا ما أتمناه..سيصل ميونخ أحد أصدقائي وزوجته أرجو أن ترسلي بعضا من كتبي التي تعتقدين أنها مفضلة لدي ..كوني سعيدة ..محبتي ..وليد )

الحقيقة لم أكن أعرف أي كتاب مفضل لديه .. ورحت أخمن ذلك .. وأنا أنهض من مكاني لأقف أمام المكتبة التي غصت عن

آخرها بالكتب والتي جعلتني لأول مرة اكتشف رقي هذا الرجل ..أمامي كتب لا يمتلكها إلا رجل يمتهن الحكمة ..تجاهلت آكتشافي وأنا أتفحص الأسماء والعناوين لهذه الكتب ..هرمان هسة ..جون ملتون .. شكسبير، يوسف آدريس ،محمد شكري ، عبد الرحمن الربيعي .أدونيس.برنادشو جوته...

تدحرجت إلى خاطري الأسئلة وأنا أتجه نحو النافذة التي تطل على فراغ عمري ليتشكل أمامي المشهد الأخير لعلاقتنا الزوجيه ففي آخرمرة كنا فيها على سرير حضر فيه كل شئ إلا رأسي ..لن أنسى كيف قفز من فوقي صارخا باسمي بخوف ورعب وهلع

- إلهام ..إلهام..إلهام

نهض مني بخوف ..وأنا أنتبه أخيرا ..وكأنني لم أكن هنا أو.كأنني أدخل المكان للتو ..وهو ينهض مني ليرتدي ملابسه

- مابك ..ماذا حصل

أجابني وهويجلس على الكرسي ويشعل سيجارته وهو يقذف أنفاسه في الصمت

- وأنا أدخلك شعرت وكأنك ميتة .. تلمست نبضك الذي غاب ..وأنت أيضا كنت غائبة..نهض من مكانه..صرخ بوجهي

أرعبتني..أرعبتني..

أطفأ السيجارة وغادر البيت ليعود بقراره الأخير بعد ساعة

وآختارهو أن ننفصل .. كان المشهد لايمرر بسهولة إلا أنه آثر أن نصمت خلف قراره الأخير .

تاركا لي إرث عشر سنوات جمعتنا زوجين بمناخ بارد

تركت القرية بعد أن أصبحت وحدي جئت إلى ميونخ لعلي أعثر على ثقب ما في جدار العزلة.

وحتي حين بدأت أعمل في متجر للمواد الغذائية لم تتوافر فرصة الحديث لأحد . الوقت محشو بالعمل فلا بد أن أملأ الرفوف بالبضائع .. الناس تشتري .. وأنا ألهث ..فلا هم توقفوا ولا أنا أتوقف .. ولكنها الحرب جاءت فقط لتوقفني لا عن العمل وإنما عن الحياة أيضا تاركة الوقت ينشر الموت في سماوات الوطن وآنا أتدلي من سقف السؤال لماذا نساق إلى الموت دائما لماذا نسفك على أرصفة الحروب ..ربما ندفع فاتورة صمتنا.. ومتى كان للأطفال زمن ارتكبوا فيه الذنب ليكونوا أول ضحايا قراراتنا الجبانة .ونحن نخلي الطريق للطغاة.

الدبابات تسحق تضاريس ذكرياتنا التي كتبتها خطانا على الطرقات.

بعد ثلاثة أيام لم يتغير في بيتي شئ .. والسقف ما زال يمطر الوحشة وأنا مازلت أنثر نفسي بين أوراقي القديمة أتفحص وهمي بين السطور ..ولا أجرؤ على أن أقنع نفسي بأنه مجرد فراغ عبث بعمري..وافترضته بداية ونهاية تاريخي .. ربما لاتعمم قصتي على كل النساء ولكنني حتما كنت أرى تفردي بهذا الوفاء للذكريات .

تقفز صورة براء بين ما تبعثر أمامي .. وهذه حالة جديدة غير الحرب تشاركني المكان .. ربما تكون نواة الحياة التي أتمنى أن تكون لي..ها أنا أبتسم حين أتذكر كيف تقفز وتمرح في المكان .. دون أن أدري باتت هذه الطفلة تلملم لي الضحكات التي ماكنت الفتها .. وتخيلت شكل العالم بلا أطفال ..حتما أن الوقت سيمر سريعا وسوف نشعر بالشيخوخة، هي تقترب من النوافذ والأبوأب .. دخول نجاة وطفلتها إلى حياتي ليس مجرد موقف جمعني بغريبتين مثلي .. آنما هو دفء لامس أطراف حياتي .. يداعب رغبتي ويحرضني نحو الواقع الذي ما همني يوما ما ،

في الحمام أقف عارية أمام المرآة أنظر الى جسدي أشبك أصابعي وأنا أغرسها بين خصلات شعري وأرفعه إلى الأعلى ليسقط على كتفي كموج أسود على غيم أبيض هل أنا ربة جمال كما كان يقول زوجي ..أمرر يدي على كامل جسدي وأغمض

عيني لأتخيل ماجد يحضنني ونغيب تحت الماء.. كنت مجرمة وأنا أسلب زوجي عبارة ( ربة الجمال) وأنسبها بخيالي إلى رجل آخر ومازال الماء ينساب فوق الجسد يحرضني على الغباء آكثر ..آكثر..كم كنت سافلة وأنا أمعن النظر إلى تفاصيل رجل آخر وأدخله من أقصى الجسد إلى أقصاه.لن أسامح نفسي وإن كان محض خيال..أنا مدانة أمامي.. ومدانة أمام حريتي .. أشعر بالذنب.. ويملأني الحزن بعد ذلك.

.............

حين رن الهاتف ظننت أنها نجاة إلا أن الصوت كان غريبا

- ألو..مرحبا ..عفوا هل أكلم السيدة إلهام رجاء

- أنا هي.. من معي

- أنا أحمد صديق السيد وليد صمت قليلا ثم تابع .. لاأدري إن كان وليد قد أخبرك بأمر الكتب التي يريدها.

- نعم نعم ..إنها جاهزة متى تحب أن تأتي لتأخذها .. أو أن أحببت آتي أنا بنفسي حيث تكون.

- نحن معنا العنوان سنأتي بالتاكسي لاأدري إن كان يناسبك غدا صباحا

- يناسبني جدا

- إذن إلى اللقاء

وها هو السيد أحمد وزوجته في بيتي ينظران إلي بدهشة وأنا أقدم لهما العصير لتقول الزوجة موجهة كلامها لي

ـ كان وليد يقول عنك الكثير .. وقال إنك جميلة..ولكن ما كنا نعتقد أنك بهذا الجمال

ابتسمت لها

ـ شكرا

أكمل الرجل

ـ الحقيقة أنا أعرف وليد منذ أن كنا صغارا وأكملنا الدراسة معا لم نفترق ابدا إلاّ حين تزوج هو ..وسافرت أنا .. أعتقد أنه أخبرك عني

تظاهرت بأني اعرفه وأنني سمعت عنه والحقيقة خجلت أن أظهر أمامهم بأني لا أعرف شيئا عن زوجي وربما يكون وليد قد أخبرني عن ذلك ولكنني دائما معه كنت دون إصغاء وتابع أحمد

ـ أنه يسميك نسمة ..

وأكملت زوجته

ـ حقا وجدناك نسمة

لا أدري لماذا أستحضر غباء ليس لي فقط كي لا أقنع نفسي بخسارة ر جل مثل وليد

كان أحمد ينظر بطريقة شعرت بها أنه يعرف الكثير عن علاقتي بزوجي .. وكأنه جاء ليرمم لصديق عمره علنا نعود زوجين..ولكن .. .. هو قلبي الذي أفسد كل شئ .. حين أمعن النظر با لخراب تمنيت لوليد حياة طيبة مع امرأة أخرى.

منذ خمسة أيام لم أغادر البيت لذ طلبت إلى نجاة أن نخرج إلى أي مكان تقترح ، المهم أن لا يكون له سقف وجدران ..كان الجو جميلا جدا والشمس تتمنع خلف غيم أبيض أختارت هي متنزها قريبا من بيتها تعودت أن تذهب إليه مع براء دائما ...ومع أن هذا المكان قريب عن بيتي أيضا إلا أنني أبدا لم أنتبه لوجوده ..والأمر ليس بالغريب فلم أتعود أن تكون لي ألفة مع أي مكان سوى الأماكن التي ألفتها الذكريات لذا كان كل ما حولي مغيبا ..

عندما رأتني براء وأنا أنزل من السيارة ركضت نحوي كأنها كانت تنتظرني لتفرح حضنتها بقوة وهي تقول لي (أنا أحبك)

- .........فأجبتها..وكأنني أحلق مع صوتها (وأنا أيضا)Ich libe dich.

Ich auch.-

لا أشعر بجمال هذه اللغة إلا حين أسمعها من براء.. ..راحت تعدو وتمرح بين الأطفال بينما جلسنا أنا ونجاة نراقبها وكانت هي بين لحظة وأخرى فراشة ترسل لنا القبلات في الهواء ..تشاغلنا بضحكات من سكر..التفتت إلي نجاة بعبارة واحدة

كأننا نلتقي لتقولها

- سنعود إلى العراق

كأنها قالت كفي عن الفرح .. صمتنا معا غبنا هناك حيث الموت في وطني ما زال يقاسم الناس الطرقات وضعت يدي على وجهي وغبت في الحيرة ليس أمامي لحظتها سوى سؤال واحد

- ولماذا الآن ؟

أجابت عن سؤالي وكأنها إجابة جاهزة ..

- ربما يكون هو الآن هناك ..أكملت وهي تتلمس إنكساري

أريد أن أنهي موضوعا مازال عالقا على أطراف القدر الذي زج بحياتي لتلتصق برجل يرتدي الغربة .. وربما هناك نخلعها حين نكون في وطن يعرفنا

- ولكنها الحرب ؟

قلت ذلك وأنا أعرف الإجابة ليس الآن حتى قبل الحرب أيضا .. أنها أقدارنا تجرنا إلى حيث تريد وتقرر نيابة عنا وترسم لنا الخطوات..لم لا مادام الرجوع قدرا ..مثلما البداية قدر

انتظرت هي حتى أخرج من ذهولي لتسأل

- هل ستأتين معنا ؟

أكتفيت بكلمة ( نعم ) لتنهض بفرحها وتتجه نحو ابنتها

تحتضنها ليكونا أمامي .. وهي تصرخ بفرح تقبلني مرة وتقبل ابنتها مره.. وقالت

- لا أصدق ..لا أصدق ..أنهمرت دموعنا معا ..لا ندري أهي دموع الفرح أم دموع نجهل وجهتها وأكملت

لا أصدق هل حقا سنعود معا؟.. هل سأرى أمي وأخوتي؟ .. وأرى بيتنا ..ظلت تبكي بينما تسألني براء

- لماذا تبكي ماما ؟؟ أحتضنت نجاة ابنتها وهي تقول

- لن نبكي ثانية..تحتضنها بقوة وتكرر. لن نبكي ثانية

عدت الى بيتي لأستجوب الفراغ الذي يعرف كل شيء..أنا أيضا لي حلم مخبأ هناك ..ربما يبدأني من جديد .. ولكن ترى هل ترك ماجد المنفى وعاد وهل فتح نوافذ العمر قبلي ..أم مازالت الستائر مسدلات.. فمنذ أن خرجنا جميعا من العراق نبحث عن منافي الخلاص نتوزع فيها كما تتوزع البكتريا على جلد الكلب .. تاركين العناق عند باب الوطن يشكله الجفاف ..ها أنا أكتشف حريتي وأقرر وحدي أن أعود .. ولكن ماقيمة الحرية التي معي الآن حين أدخل وطنا محتلا..

ولكي لايحتويني التردد ..نهضت من مكاني أخرجت حقائبي الفارغة وبدأت أضع فيها الملابس .. وحقيبة أخرى تركتها فارغة حيث قررت أن آخذ بعض الأدوية التي ربما يحتاجها الأطفال هناك وهم في هذه الظروف القاسية فما زال أمامي وقت كاف

لأقوم بجمعها.. ولا أعتقد أن أحدا هناك بحاجة إلى الهدايا .. سأحتفظ بالمال فهو ما يحتاجة أهلي ...مازلت أتخبط في فوضى الغرفة. وأنا أحاول أن أتذكر ما يمكن أن أحتاجه .. وها أنا أخيرا أضع الدفتر الذي دون عمري بعد أن تأكدت أن الرسالة لاتزال بداخله.. ربما أحتاجه لأكتب فيه نهاية حلمت بها ..وأخيرا أغلق الحقيبة وكأنني أسافر الآن وليس بعد أسبوع كما اتفقنا أنا ونجاة.

في مطار ميونخ .. وعلى غير عادتي كنت أتكلم بصوت عال .. الناس كانوا يتفحصون فرحي ..وها نحن نندس بطابور طويل من العراقين الذين وقفوا أمام مكتب الخطوط الجوية السورية .. كل واحد كان يتابط الفرح ..لقد كان المكان عامرا بالغبطة .وكعادتي أستحضر الآمي في لحظات فرح كهذا حين تذكرت دموع أهلي وأنا أبدأ الغربة قبل أكثر من عشر سنوات مع زوجي .. كأنهم كانوا يشيعون جثماني ويسجون صمتي بالبكاء.. .وها هو السؤال الجدير بموقف مثل هذا .. هل حقا سيكون كل هؤلاء سعداء هناك ؟.. أو ربما لا يجدون ما يستحق المكوث بعد حرب ملأت سماوات الوطن بالسموم .. وزرعت ضغينة لا يجني ثمارها إلا الفقراء ...أمسكت رأسي بقوة كي لا تدخل إليه فكرة ما تبدأني بالتصحر .. وأمسكت حقائبي بقوة وأنا أوغل نفسي أكثر بين الآخرين كأنني أهرب من أحد ما خلفي .. وأكيل الشتائم لضعفي ..أحقا يخيفني الوطن ..أم تخيفني فكرة أن لا أجد من أحب ؟

انتبه لنجاة وهي منشغلة بحقائبها الكثيرة .. فهي لم تنس

أحدا لقد تذكرت الجميع بالهدايا وأراهن أنها لم تشتر لنفسها أي شئ ..وها نحن نضحك بصوت عال ونحن نسمع رجلا يتشاجر مع زوجته .. وضحكنا أكثر حين قال الرجل لزوجته وهو غاضب ( أي طبعاً مواني حمال الخلفوج )..ونظرت إلى حقائب نجاة فضحكنا أكثر حتى بدأ الحاضرون جميعا ينظرون إلينا وغص المكان بالضحك

إذن أنا أجيد شيئا آخر غير البكاء

أحسست ولأول مرة بألفة مع الآخرين .. كلنا نتجه إلى مكان واحد هو الوطن .. نشترك بإحساس واحد يلامسنا . يغطينا .. ننجو به من عتمة الغربة .. شئ واحد يمنحنا الدفء والضياء .. نقتسم الأمل متناسين الخوف الذي سكننا منذ سنين... بين الآخرين رأيت وجها يبتسم لي وحدي كأنه مسرة ما تتبعني.. تتابع ضحكاتي وخطواتي.. يريد أن يقول شيئا ما .. لا يدري كيف يبداه واكتفت قسمات وجهه الخجولة بابتسامة صافيه .. وأنا أحاول أن أتجاهل إحساسي حين أتفحص أرتباكي ... اللحظة لم تقنعني أنه لا يعنيني أنا دون الآخرين .. .. وربما كانت المرة الأولى التي يستوقفني شكل رجل .. فعبر قسمات إنسان واحد كانت كل أحلامي .. .. .. وما إن التقت عينانا وهو يحاول أن يساعدني وأنا أقرب الحقائب لموظفة الخطوط .. أرتجفت دواخلي .. ربما حياء .بدا لي وكأنه لم ينم دهرا ...أشاكس تلك اللحظات بالخجل. ..ماذا يريد مني هذا الرجل .. هل يعرفني ..غاب بين الآخرين وعاد رأسي إلى الوراء أنال دواخلي التي باتت دون

حواجز وأنا في أول يوم انعتاق .

في دمشق مكثنا في أحد الفنادق لمدة يومين صادف أن تواجد في نفس الفندق أغلب من جاء معنا على نفس الطائرة.. وجدته ثانية بجواري في بهو الفندق ..مازال حاجز الخجل .. يوزعنا بالصمت .. ولكن ابتسامتي أفضت بالكثير وكانت فرصته الطيبة ليبدأ هو بالتحية

- صباح الخير

- صباح النور

فأجأني بسؤال غريب عندما قال

- لم أنت حزينة ؟؟

وبحق لم أجد إجابة لمثل هكذا سؤال كبير .. ربما لغرابة ما قال اكتفيت بابتسامة شعرتها صادقة تخرج من أعماقي

اكتفى هو بابتسامتي وأكمل

- أسمي مصطفى وأيضا كنت أقيم في ألمانيا .. وحظي سيء

وكأنني أعرف الاجابة قلت

- لماذا حظك سيء ؟

- لأنني لم ألتق بك من قبل

غيبت ابسامتي بالخجل وصمتنا معا عندما بدأ الأخرون

يتجمعون ليقرروا موعد السفر..وما كان بوسعي أن أقف معه طويلا..مع أني تمنيت ذلك ولا أدري لماذا..هل تشفيا بكل ما فات أم مجر أن أبدأ حرية ما فلم يمض الكثير على آخر فكرة اضطهدتني ولكن مرة أخرى أدرت أفكاري إلى الوراء..لا لشئ فقط كي لا أقلب عمري لأحد و أتساقط أمامه مثل أوراق الخريف ... قاطعنا الآخرون حين أحتشد المكان بهم.

وجدنا أن نشكل مايشبه القافلة ونحن ندخل العراق فهذا أأمن لنا من دخولنا بشكل منفرد .. لكثرة ما سمعنا من حوادث التسليب والقتل .. وبعد اليومين كان العدد قد اكتمل وكان أيضا خروجنا من دمشق قبل الفجر بقليل قريبين من حدود الوطن لنكمل الطريق في ساعات النهار ..تجنبا للمخاطر التي قد نتعرض إليها تحت جنح الظلام .. لا أدري لماذا تبادر إلى ذهني فكرة الدخول إلى ليل مقبرة .. أحزنني هذا الإحساس .. ولا أريد أن أصدق صورة جلبها ذهني دون أن أدري .. المقابر فقط نخاف الدخول إليها ليلا..ويشترك اللصوص في قسمة المشهد .. إذن لابد أن نستوقف شمسا تصطحب الأمان لندخل وطنا كان عصيا حتى على الأحلام.بدأت الرحلة بما يقارب السبع سيارات كبيرة اتسعت للخوف والفرح والحقائب .وكأي نقاط خروج عربية يزرع بعض المساومين على حلم تحمله ولكي لا تصطدم بعقبات الأسئلة ندفع بالقليل كي ينتهي الأمر دون معوقات .. أبدا ماخطر ببال أحد من حشد الوافدين من المنافي أن يعترض ولا يدفع ..نحن

دفعنا عمرا في ظلمة المنافي فما قيمة رشوة بسيطة ندفعها لينتهي الأمر ؟

ها أنا الآن أمام أول غربة فليست هذه حدود بلدي التي كانت بالأمس .. غابت الهيبة عنها ..وجدتها مباحة مشرعة لكل الغرباء .. كأنها عاهرة بلا ثمن .كلنا يبدأ الحزن و يبدأ الحداد على موت شيء ما ...رجلان أوربما ثلاثة فقط هو كل ما بقي من حراس امبراطورية الخوف .. تبخرت حواجز الأسئلة وإشارات الوقوف ..ما عاد بوسع أحد منا أن يفرح .. كان مصطفى يجلس بجوار السائق .. حاول جاهدا ألاّ يخرج من هيبة الصمت ..لم يستطع وانفجر بالبكاء .. ولأنني كنت أجلس خلفه وضعت يدي على كتفه فاستدار برأسه نحوي وكانت نظرة امتنان تلك التي أزاحت دمعاته المنهمرة وظلت السيارة تتوغل في الأنين ..لم أجد ما أتحدث به إلى نجاة فهي أيضا كانت تبكي .... كلما تقدمنا نترك على جوانب الطريق السريع الكثير من العجلات المحروقة..وبنايات تطالعنا من بعيد بخرابها ..نقترب عند أطراف مدينة الرمادي .. تستقبلنا أشجار النخيل .. ..والوقت صيف ..أفرحني الطلع الذي يشبه بريق حلم تخبأ لي ..أما الشاب الذي بدأنا البكاء ..شاغل حزنه بفرح نخلة احترق جسدها إلا أن قامتها أنجبت سعفا طريا تدلى معه عثق مازال يحتكم للبياض ..ونخلة أخرى أنجبت خاصرتها فسائل كثيرة ..نظرت إلى براء وهي جالسة بجانبي ..أداعب خصلات شعرها بأصابعي التي وفرت سؤالا أخيرا (هل ستجدين وطنا معافى) ؟

توقفت القافلة عن آخرها .. لسبب توقعناه .. أحاطت المكان من جوانبه الأربعة الكثير من المدرعات وسيارات الهمر الأمريكية .. وما يسمى بالمصفحات ..لانملك ما نجنده للخيار .. الجميع يجب أن يترجل .. لتشاهد فيلما أمريكيا ومجازا لا أخبئ دهشتي عندما يستوقفك غريب وأنت تدخل بيتك .. أين ستكون رجولة زوج أو أب أو أخ .. ينحسر الصوت عن أخره ليمنحنا الألم الغريب .. إلا أن المكان وحده يفهمنا.. يفهم تقاسيم وجه الأرض التي نقف فوقها .. لا نكون أحرارا إلابمباركة الأيادي الغريبة التي تمر على أجساد النساء .كي تمنح رجولتك ختم الدخول ... ومباركة يمن بها ..غرباء .. تذكرت كل قصص الشعوب التي ركعت . وتسللت إلى رأسي عبارة كان أبي يكررها دائما (.تتكشف عورة الوطن حين يركع)

أمرنا أن نخلي السيارات من الحقائب وأن نشكل طابورا طويلا بلحظات وها أنا انتبه لنجاة وهي تصرخ ..وبفزع

- لقد قرأت أسمه على أحدى الحقائب ..

وأنا أستوضح منها بدهشة وأطلب منها أن تهدأ

- أهدئي قليلا ..أسم من قرأت ؟

- أسم ماجد

- دوى الاسم في سماوات عمري في لحظة .. لملمت أرتباكي وأعدت السؤال

- اسم من قرأت ؟

اعادت الأسم كاملا هذه المرة

- ماجد محسن حميد والد براء

تركتني لذهولي وللصدمة وراحت تبحث بين الأخرين وأنا أستوقف أخر العبارة..والد براء.أيكون قدرا أخر يلتصق بأطراف عمري .. لأقتسم معها رجلا واحدا ؟

. تمنيت من قلبي أن يكون مجرد تشابه أسماء .. ولوصدق خوفي .. أكون أفنيت عمري وأنا أنتظر رجلا دنيئا ..ياالله ..لا ..لا إنها قالت أسماً آخر .. ولكنها غرست الاسم في نفسي كما لو كانت تغرس سكيناً .. قالته كاملا .. آه لو أنها...كم أتمنى أن أكون واهمه.. لم تقل شيئا ..نعم لم تقل شئًا..ولكنها ها هي أمامي تمسك ابنتها بيد وتقلب الحقائب التي تكومت باليد الأخرى.. ودون أن أشعر اتجهت صوبها أنتظر أن تفرغ من حيرتها لتمسك لي السؤال الذي وزعني بالفراغ .. نظرت هي إلى موتي وتركت عبثها با لحقائب الكثيرة لتسألني

- إلهام مابك؟ لم تبكين؟

لم أستطع الإجابة عجز كل ما بي عن النطق .. فقط هي الدموع .. تضمد خيبة جديدة.. عدت أكذب أذني وألملم أوصال السؤال الذي تشظى في نفسي

- إلهام ألم تقولي إن والد براء اسمه حيدر ؟ نعم أنت قلت لي

هذا الاسم أكثر من مرة .

نفضت يدها وهي تطلب لي أن أمسك براء كأنها لم تنتبه للسؤال .. أعدت السؤال وأنا أطارد تجاهلها لي

- ألم تقولي ان اسم زوجك حيدر

ترتفع نبرت صوتي بغضب .. لماذا تكذبين الآن ؟

تركت نجاة كل شئ انشغلت بسؤالي الأخير ..أقتربت مني كأنها تعترض توقف اتهامي لها

- لا ... لا.. لم أكذب أبدا .. أنا أقسم لك بحياة براء لم أكذب .. لأنه ببساطة لا يوجد ما يدفعني للكذب

- ولكنك قلت اسما آخر حفرته في أعماق عمري وأخرجته ألم تقولي إن والد براء أسمه حيدر

اقتربت مني وكأنها تريد أن تحضنني .. وأنا أنفر من يدها .. تمسكني أكثر لتقول

- حين عرفته كان اسمه حيدر وهذا هو الاسم الذي تقدم به ليأخذ اللجوء من ألمانيا وكان له أكثر من اسم .. ولكن في آخر مرة كان معي أخبرني بإسمه الحقيقي وحين تعرفت عليك لم أكن قد تعودت على اسمه الجديد فكل ما لنا من أوراق جمعتنا كان هو حيدر وأنا نجاة وابنته براء.. صدقيني لم أكذب

سمعنا معا صوت أحد الجنود الأمريكين .. يوجهنا لنفتح

حقائبنا لتفتش وها هي الحقيبة تأخذها إحدى العوائل العراقية التي كنا قد تعرفنا عليها، وكانت الحقيبة بيننا تشكل قاسما مشتركًا نبحث عن نسب لها كانت نجاة ما زالت تلازمني حتى كادت أن تنسى الحقيبة لا تفكر إلا بأمري وأنا أفر منها فتحت زوجة الرجل الحقيبة توسطنا المشهد وأخذت المرأة مكانا يتوسط بيني وبين نجاة وبدت متذمرة من الحقيبة التي أتوا بها مجبرين وكانت تشكل عبئا مضافًا اضطروا لجلبها معهم فهي أمانة تركها صديق زوجها.. انفرجت أسارير الرجل والمرأة حين علموا أنهم سيتخلصون من حملها.. فها هي نجاة تنظر إلى ما في قلب الحقيبة من أشياء تعرفها حق المعرفة إنها ملابس زوجها .. مازلت أتمنى أن يخيب الله ظني .. ولكن انتهى الأمر حين أمعن الجندي الأمريكي في بعثرت الأشياء لتتناثر صور وأراق ماجد . توقف الألم تماما كأنني كنت أنتظر لحظة كهذه و حين وصلت إلى أنفي رائحة ملابسه النتنة أشفقت على نفسي وأنا أحصي عذابات سجلتها أجمل سنوات العمر لتتحول إلى قبح أفر منه وأنا أنتظر .. انشغلت هي بالحقيبة وجمع هذا النتن المبعثر .. وظلت زوجة الرجل .. تصفه لي.. شعرت بالغثيان .. همسا سألتني

- هل تعرفين ماجد ..

وقلت لها دون أي تردد

- لا

هذه الـ لا التي انتزعته من كل تواريخي الباطلة.. بصقت عليه .

أكملت ما كانت تريد أن تقول كأنها كانت تنتظر جوابي لتصفه لي بقرف

- لا أعتقد أن أحدا من العراقيين لا يعرف ماجد متعة .. ويسمونه أحيانا ماجد لون .. لأنه كان يتلون ويتحدث بكل اللغات .. أكبر مهرب... صمتت وعادت تهمس في أذني وهي تنظر إلى نجاة .. لقد كانت له في كل عملية تهريب، فتاة .. إذا لم يستطع أن يأخذ منها ما يريد كان يتزوجها بالمتعة .. ويأخذ .. .. قذر ..قوأد

سمعت نجاة الكلمة الأخيرة التي جعلتها تشعر بمذلة موقف كهذا .. شعرت بذلك أمامي ...لتتساوى الخيبات..

مازال الطابور طويلا نظرت إلى آخره كانت يد الجندي الأمريكي بقفازاته البيضاء تعبث بكل تفاصيل الحياء وقف بجانبه رجل مدفوع الأجر يتكلم العربية ليترجم أوامره ونحن نساق خلف الخسارات والإشاره لأخر ألم خطه الرحيل.. وأرشق البدء بالشتائم والخراب وأنا على عجل أغير وجهتي ..لأدفن بالحلم الذي ساقنا للهلاك .. غيرت الأرض وجهتها .. سأتبع حلما يوقد بعيدا ..سأعود عندما تضاء حرية تبدأنا بحرية لا يبداها الرصاص.

نظرت إلى براء ..كأنها كل مايعنيني .. قبلتها وأنا أمسك حقيبتي .. قبل أن يبعثر بقفازاته كل عمري .. وخفت على جسدي من ورم يتربص بي .. حملت نفسي وذهبت إلى الجهة الأخرى من الطريق .. بكت نجاة خلفي وتجاهلت دموع ابنتها .. فما هان علي

ذلك عدت ثانية بخطوات مترددة أرمم لها بعض الخراب وقلت لها

- سأعود غدا حرة...

وبعيدا عنها فتحت حقيبتي وأخرجت دفتر سنواتي .. سقطت منه تلك الرسالة ..لم أنحن تركتها على الأرض ...صارت تحت الأقدام...لم أبال .. كأنني أسجل زهوا حين تمرغت بالتراب.

وأنا أجتاز الشارع إلى الجهة الأخرى شعرت بيد على كتفي .. تعيد أمتنانًا في لحظة مواساة تشبه تلك التي منحته إياها في الحافلة عندما أجهش بالبكاء ... استوقفني بسؤال

- إلى أين تهربين ثانية

أنهمرت دموعي أكثر وصار صوتي لا يميز الحروف

- إلى حيث لا أحد

ظل ينظر إليّ وكأنه لم يقتنع بإجابتي وأخرج منديلا من جيبة وهو يقدمه لي قال بحب

- ابتسمي ...غيبي دمعاتك بالأمل

شعرت وكأنني أخرج حمما من أعماقي وأنا أحصي خيباتي أمامه في تلك اللحظات.

- أبتسم لمن؟ لعمري الذي شاخ أمام نوافذ الانتظارات ..أم لخساراتي والحسرات .. أم لربيع مالامس عمري أم لصحراء أنفاسي .. أم لخيبة أملي ؟ ( وأنا أشير إلى الجنود الأمريكين) أم

لهؤلاء الجراد أم للجواسيس واللصوص والخونة والقوادين والعاهرات والموت ؟

وأنا أسقط من الإعياء أمسكني هو بقوة كأنه يريد أن أفيق من نوبة الضياع.. نظرت إلى عينيه بقوة وقلت بضعف

لا أستطيع.. وكررت الكلمة بشكل آنين

لا أستطيع...لا أستطيع

رغم الأسى شعرت بدفء أصابعه تمسح الحزن عن وجهي..وحين كانت الشمس تغيب في الأفق البعيد أناب هو عنها وأشرق صوته بالمكان

- استبدلي كل هذه الخسارات بالأمل ..

(أخذ يدي أجلسني على الحقيبة وجلس هو على الأرض وأكمل)

عندما ميز قلبي أول نبضة حب قبل أكثر من عقدين كنت مثلك أخفض رأسي حين تمر كانت خيالاتي تلاحق عطرها أما أنا ما تجاسر قلبي بالبوح .. ظل قابعا في خلايا السكوت..

لقد خمن سؤالي وأجاب

هي أخت صاحبي .. وما كنت أجرؤ على النظر إليها . ما تعودت خيانة أحد فما بالك بصديق عمري

وهو ينظر إلي بحب قال:

هل تدرين أنت تشبهينها كثيرا ..حين كنا في المطار شممت عطرها فيك وما عاد بوسعي خسارة أخرى .. غيبت نفسي بين الآخرين وغبت خلف التردد والارتباك ...ولكن اكتشفت اليوم أنه ما عاد بإمكاني أن أتجاهل نبض قلبي ثانية

(وجدته رجلا يستحق أن أجند له انتباهي إلا أنني لم أكترث لنهاية القصة كأنني أعرفها سلفا فهو مثلي ينتمي لزمن الخسائر والنهايات غير السعيدة ).. وأكمل

يجب أن نكف عن الهروب ..

نظرنا معا إلى أوراقي وهي تختفي تحت الأقدام تماما نهضنا من الأرض حمل حقيبتي بيد وأمسك يدي بالأخرى

كنت أرتجف وقلت

. خائفة

. أنا معك

وأنا أنظر إلى الجندي الأمريكي ...

. هل تستطيع ؟

. سأحيطك بي ... لاتخافي ...

وهو يشير إليهم

هم يرحلون ونحن من سيبقى

ابتسمت وشعرت بالقوة وهو إلى جواري.. لوحت بيدي لبراء التي مازالت تبكي .. وحين رأتني أتجه صوبها أفلتت يدها من يد نجاة وطارت نحوي ، حضنتها ودرت بها وبقيت أدور بها أدور ... أدور..أدور. حتى تحولنا معا إلى سؤال كبير ... وإجابة صغيرة.

انتهت....